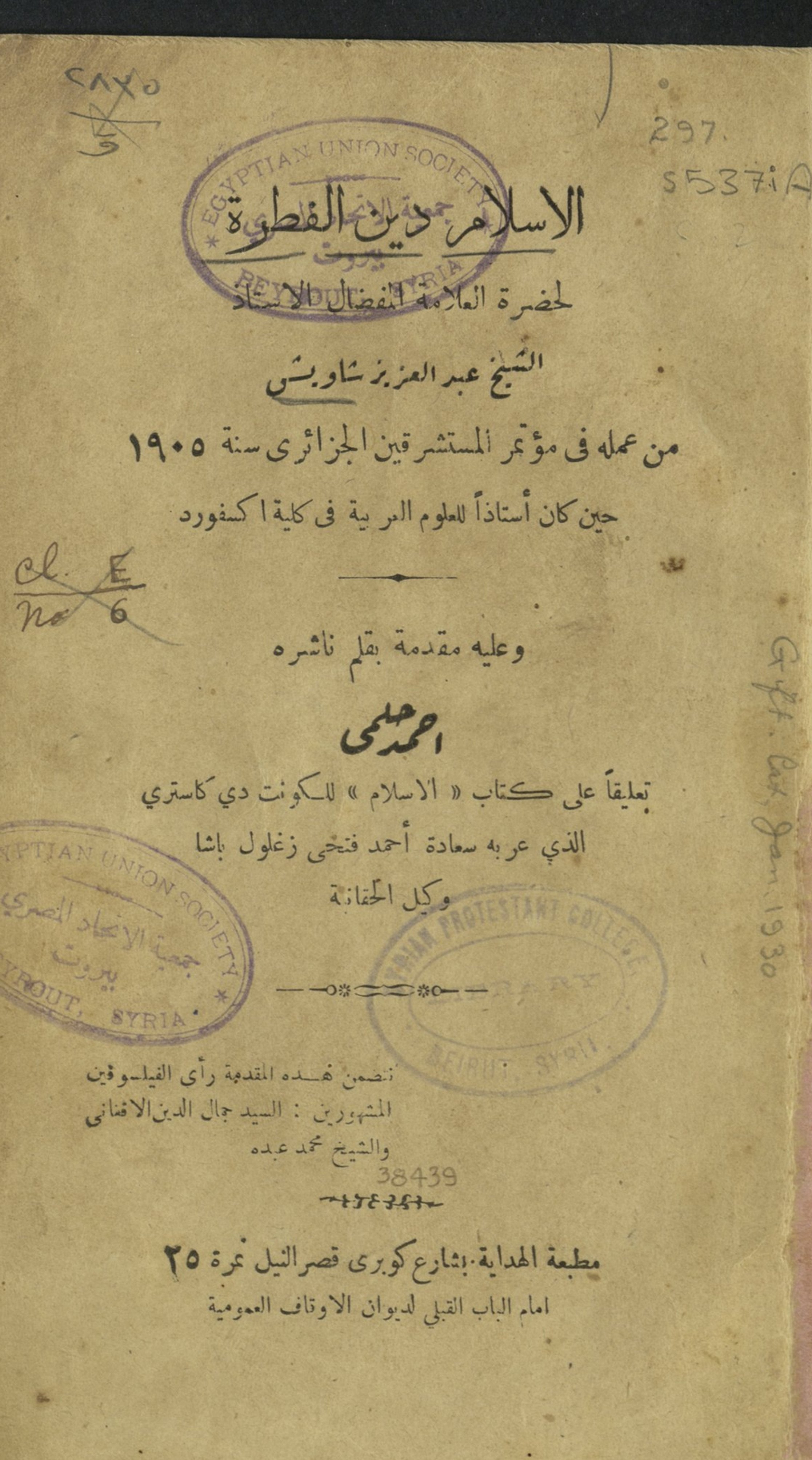


الاسلام دين الفطرة

لحضرة العلامة المفضال الاستاذ

الشيخ عبد العزيز شاويش

من عمله فى مؤتمر المستشرقين الجزائرى سنة ١٩٠٥

حين كان أستاذاً للعلوم العربية فى كلية اكسفورد

وعليه مقدمة بقلم ناشره

احمد حلمى

تعليقاً على كتاب « الاسلام » للكونت دي كاستري

الذي عربه سعادة أحمد فتحى زغلول باشا

وكيل الحقانية

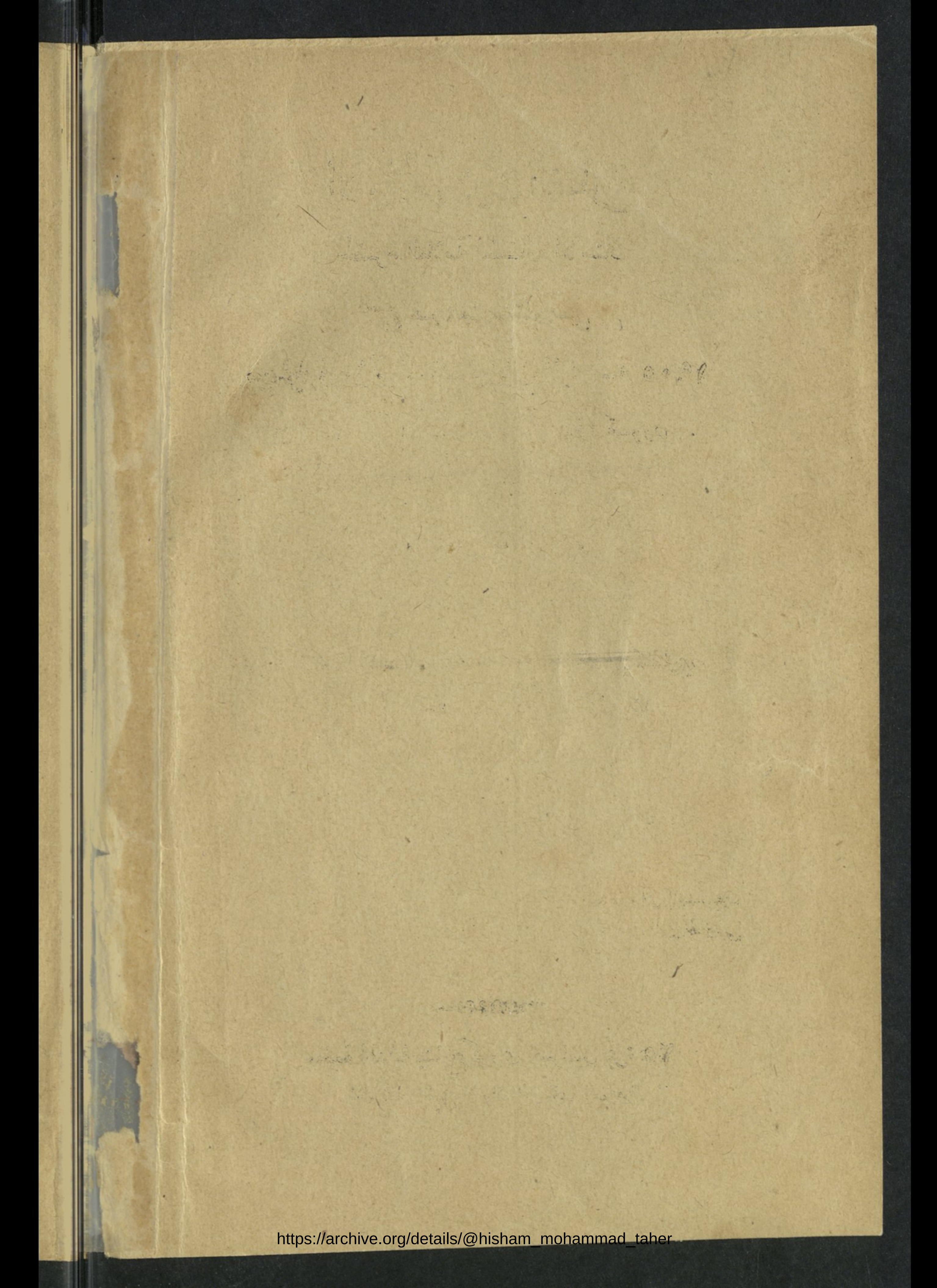
تتضمن هذه المقدمة رأى الفيلسوفين

المشهورين : السيد جمال الدين الافغانى

والشيخ محمد عبده

مطبعة الهداية بشارع كوبرى قصر النيل نمرة ٢٥

امام الباب القبلي لديوان الاوقاف العمومية



كتاب

الاسلام دين الفطرة

فهرست

كتاب الاسلام دين الفطرة

صحيفة

الاسلام دين الفطرة

لحضرة العلامة المفضال الاستاذ

الشيخ عبد العزيز شاويش

من عمله فى مؤتمر المستشرقين الجزائرى سنة ١٩٠٥

حين كان أستاذا للعلوم العربية فى كلية اكسفورد

وعليه مقدمة بقلم ناشره

احمد حلمى

تعليقاً على كتاب « الاسلام » للكونت دي كاستري

الذي عربه سعادة أحمد فتحى زغلول باشا

وكيل الحقانية

تتضمن هذه المقدمة رأى الفيلسوفين

المشهورين : السيد جمال الدين الافغانى

والشيخ محمد عبده

مطبعة الهداية بشارع قصر النيل نمرة ٢٥

أمام ديوان الاوقاف العمومية

مقدمة الطبعة الثانية

نظرةٌ فى كتاب الاسلام

للكونت هنرى دى كاسترى

طلعت شمس الاسلام من شبه جزيرة العرب التى انتشرت فيها الامية وتأصلت بين أهليها عنجهية البداوة وخشونتها فأضاءت المشرقين ونفذت الى القلوب أشعتها فملأتها من قوة العقائد السامية فتضاءلت حيالها قديمة الشرائع وحديثة النواميس فما وجد الجاحدون مناصاً من الاعتراف مرغمين بانها ليست كشرائعهم بل تفوقها سمواً ورفعة واحكاما. وقال غلاتهم انها السحر. وقال المؤمنون انها التنزيل من حكيم حميد

ان الدين الاسلامي الحنيف وهو مجموعة مبادىء سامية وعقائد عالية لقوىّ بنفسه غنىّ بوضوح محجته عن دفاع الاقلام لسموه عن متناول الطعن والطاعنين. ولولم تكن للدين الاسلامى تلك المكانة الرفيعة لما بسط جناحى سلطانه على رءوس الامم من جنوبي فرنسا فى جوف أوربا الي

أقصى الشرق فى أبد من الزمان لا يتجاوز قرنا واحدا فطأطأت له هامات القياصرة ذلة وخضوعا وعنت لهيبته وجوه الاكاسرة استكانة وخنوعا

أولئك الاكاسرة الذين سادوا مملكة فارس التى كانت على عهد دارا الاكبر احدى وعشرين ايالة وكانت احدى هذه الايالات مشتملة على مصر وسواحل البحر الاحمر وبلوخستان والسند كما حققه «فرنسيس لونرمان» المؤرخ الشهير

وليست تلك القوة التى أخضعت زهاء مائة مليون من البشر فى قرن واحد هى قوة كتائب البدو الذين لهم فضل الفتح والغزو بالاسياف والنبال وحدها بل انما هى قوة تلك الصفات الفاضلة التى اشتمل عليها ذلك الدين القيم

وان دينا هذه قوته لفى غنى عن دفاع أبلغ البلغاء . وما مطاعن الطاعنين فيه الا كالغبار يعلو الجواهر الكريمة واللآلئ اليتيمة فلا يضيرها منه شئ اذ أقل الذين يدينون به شأنا يستطيع أن يزيل هذا الغبار عنها بغير عناء فتعود سيرتها الاولى من الاشراق والالتماع

*
* *

نظرنا فى كتاب «الاسلام» الذى وضعه الكونت دى كاسترى وأخرجه للناس فى ثوب عربي سعادة أحمد فتحى زغلول باشا وكيل الحقانية المصرية نظرة أعقبتها ألف حسرة وكيف لا يتحسر المسلم عندما يرى ان أوفر الاوروبيين عقلا وهو يدافع عن الاسلام لا يري الا ان ايمان المسلمين كايمان الفحامين من المسيحيين ليس الا وجدانا عاديا

قوى فى النفوس وتمكن من القلوب وقد تساوى فى ذلك العالم والجاهل والامير والحقير ولا مجال بعد ذلك لمناقشة الباحثين وتخاصم المتقدين.

قال ذلك فى معرض الدفاع عن المسلمين ثم ساق طائفة من أساطير القرون الوسطى وأغانيها التى جاء بها الوضاع المسيحيون فى القرن الثانى عشر وقد أملاها عليهم ذلك الفكر المشترك الذي كان السبب في الحروب الصليبية . ثم سأل نفسه عن قول المسلمين لو علموا بتلك الاساطير التى تنطف حقدا وبغضا

وبديهى ان الكونت كاسترى ماأورد تلك الاساطير الا ليعلمها المسلمون ويقولوا قولهم فيها (١)

---

(١) قال الكونت هنري دي كاستري فى الصحيفة السابعة ومايليها من كتابه الاسلام :

فكل ناشد (من المسيحيين) كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة أوثان مارقين وقد جعلوا لهم ثلاثة آلهة هم على ترتيب درجاتهم « ماهوم » — ويقال ماهوم وبافوميد وماهوميد — وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم «أبلين» ثم « ترفاجان » وذهبوا الى ان محمداً — الذي هو عدو الاصنام ومبيد الاوثان — كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من ذهب كما كان يعتقد (الكرلو فنجيون) وان المسلمين لما غلبهم الافرنج وردوهم الى أسوار سرقطه (مدينة باسبانيا استردها الفرنج من المسلمين سنة ٥١٢ هجرية) عادوا الى أصنامهم فحطموها كما أنشد به أحد منشدي ذلك العصر حيث قال :

« وكان أبلين الههم فى مغارة هناك فتراموا عليه وأوسعوه شتماً وسباً وصلبوه من يديه فى أحد العمدان وجعلوا يدوسونه باقدامهم ويوجعونه ضربا بالعصى حتى هشموه وأما (ماهوم) فقد رموه فى حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه وتمشى عليه وتلك اهانة لم تصب الهاً قبله »

وهذا على مايظهر هو ما عناه سعادة المعرب في مقدمته بقوله :

« على ان اشمئزاز البعض مما جاء في هذا الكتاب (الاسلام) من الاقوال التي ردها المؤلف ودل على خطأها بالبرهان لا يقابل الفائدة التي نراها من نشره والذي يقصد الفائدة ويتحرى مآخذها لا ينبغي له أن يلتفت الى ماعساه يكون من نفور بعض القراء فانهم لو أنصفوا لما نفروا (الى أن قال)

وأظن انه لا يختلف اثنان في أن من ألزم الواجبات حكاية ماحكوه واشهار ماقالوه واذا كان الغرض في القسم الاول هو الرد عليه

ويظهر ان المسلمين لم يلبثوا ان تابوا من ذنبهم واستغفروا آلهتهم وأصلحوا ماأتلفوه منها ولذلك أمر الامبراطور كارلوس بابادتها لما دخل سرقسطه كما جاء في قول ذلك الشاعر : — (وقد أمر الامبراطور الفرنساويين فطافوا جميع انحاء المدينة ودخلوا المساجد والجوامع وبايديهم مطارق من حديد فكسروا بها ماهوميد وجميع الاوثان والاصنام) ولذلك يقول «ريشار» في أناشيده وهي جميلة لاشيء من الخرافة فيها الا انها زور وبهتان حيث يطلب من الله أن يوقع الفشل العميم بين (أولئك الذين يعبدون صورة ماهوم) ثم جعل يحرض الاشراف على الحرب المقدسة وينصحهم أن ينكسوا أصنام المسلمين — بقوله — قوموا ونكسوا صنم ماهوميد وترافاجان وصبوهم على النار وقدموهم الى ربكم —

وذهبوا الى ان صورة ماهوم كانت تصنع من أنفس الاحجار والمعادن باحكم صنع وأدق اتقان ومن قرأ وصفه في أناشيد « رولان » كان يحلف ان ذلك الشاعر انما يصف عن خبر وعيان اذ يقول :

وكانت كلها من الذهب والفضة لو شاهدتها لايقنت بانه لا يمكن للعقل ان يتصور أجمل منها عظيمة الشكل لطيفة الصنع تلوح على وجهها سمات الشهامة . كان ماهوم من ذهب وفضة يأخذ بريقها بالابصار قد وضع فوق فيل على جلسة من

فليكن الغرض من هـذا القسم معرفة مارمينا به وهذا بلا ريب ينتج الرسوخ في العقيدة عندنا وينتج أيضا اقتناع الواهمين بضـد ماتوهموه وهذه النتيجة تقصد لـكبار العقلاء ويحبها أفاضل العلماء »

فسعادة المعرب يتحد معنا فى الشـعور بوجوب ادحاض تلك الاوهام التى تملـكت عقول الغربيين عن الدين الاسلامي الحنيف دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها لان أقل نظرة فى تلك الاقوال تجعل القارئ يعتقد انه يقرأ حكاية في كتاب « ألف ليلة » المملوء بأوصاف الجان والعفاريت . أوقطعة من شعر هوميروس المفعم بخرافات اليونان

أجمل المصنوعات خاويا من جوفه فيري الضوء من خلاله مرصعاً بنفائس الاحجار المضيئة يرى النـاظر باطنه من الظاهر وهو صنع عز عن المثال والنظير »

ولـما كانت الآلهـة تنزل الوحي وقت الشدائد وانهزم المسـلمون فى احدى غزواتهم بعث قائدهم الى مكة يطالب به قال الراوي فجاء الاله محمد في موكب عظيم يضرب بالطبل والمزامير ضربا يسمع له دوى قاصف وبعضهم يغنى بالمزمار والآخر بصفارة من الفضة والـكل حولهم يرقصون ويغنون بأعلى أصواتهم وأقبلوا به فرحين حيث المجلس معقود والخليفة الدينى في انتظاره فلمارآه قام يعبده بخضوع وخشوع

ثم أخذ ريشار بعد ذلك يقص كيفية مناجاة أولئك الوثنيين لذلك الصنم الذي وصفه بالتجويف وان لاشئ في باطنه الا ويرى من الخارج فقال :

وقد وضعوا فى جوفه عفريتاً استحضره السحرة وصار ينط ويعربد ثم أخذ يكلم المسلمين وهم يسمعون

ولقـد زاد بغضهم لذلك الصنم حتى جعلوه علامـة على الدين الاسلامي كما جعلوا الصليب علامة للدين المسيحى فروي « بودوان » فى نشيده على الـكونتسه « يونتيو » انها لـما أرادت ان تعتنق الاسلام امام صلاح الدين قالت أريد ان أعبد محمداً فأتوني به فلما صار بين يديها خرت ساجدة اليه »

ومعارك الآلهة وملاعب الارباب وولائمهم وحفلاتهم التى يزعمون
انه زفس (المشتري) كبير الالهة كان يقيمها للانس والطرب مع
زوجته الالهة هيرا ممثلة الهواء وربة الزواج في هذا العالم . وأفُلُّون ممثل
الشمس واله النور واثينا الهة الحكمة والصناعة واريس (المريخ) اله
الحرب ورب الفتك والبطش . والزهرة آلهة الجمال والتهتك وربة
الغرام والعشق. وفوسيذ اله البحار وهيفست اله النار ومثير البراكين
وهائج الصواعق . وآذيس اله الظلمات والموت وولى العالم السفلي

فبمثل هذه الصفات الخرافية يريدون أن يصفوا لنا دينا قويما
أساسه الاقوى «قل لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا سبحانه وتعالى عما
يصفون»

فأين تلك الخرافات التى تصدى الكونت دى كاسترى لادحاضها —
وقد نقلنا طرفا منها في الصفحة (الرابعة وما بعدها) من دين الله الذى هو
أخر الاديان السماوية . ومن المؤكد أن للاخير من كل شئ ميزة
ليست لما تقدمه

واذا كان موسى وعيسى عليهما السلام قد أرسلا الى بنى اسرائيل
فان محمدا صلى الله عليه وسلم أرسل للناس أجمعين قال الله تعالى « ما كان
محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وقال
« وماأرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً »

وهذا التصريح لم يرد فى كتاب سماوى خلا القرآن الكريم
ولقد امتاز القرآن بتقرير مبدأ المساواة العام وهو الذى رفع

مستوى الانسانية الى أسمى الدرجات فجعل الامم كاسرة واحدة أبوها آدم والام حواء . قال الله تعالى

«ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال « ياأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً »

فالخطاب فى النهى والامر والارشاد والوعظ للناس جميعا

ولقد اشتمل القرآن على أصول الشرائع وقواعد المعاملات وأيما أمة استمسكت به ولو كانت فى رأس الجبل بعيدة من كل حركة عمرانية لا يمضى عليها نصف قرن حتى تكون من أرقى الشعوب مدنية وبأساً . انظر الى قوله تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

فاذا كان الناس فيما بينهم أمناء أوفياء وحكامهم عادلين مقسطين فأى تقدم يستعصى عليهم بعد ذلك مناله وأى عظيم من الامور يشق عليهم احتماله

الا أن تقدم المسلمين فى الثلاثة القرون الاولى من الهجرة ما كان الا أثراً من فيوض ذلك الدين القويم . ولو انه كان دين وثنية وكان المسلمون يعتقدون بأن فيهما — الارض والسماء — آلهة الا الله القوي الفعال كما وصفهم من روى عنهم الكونت دى كاسترى ماروى . لما كان لهم ذلك الشأن الرفيع الذى بلغوه فى أوائل عصر الدولة الاموية في الشام والاندلس أو فى عهد الدولة العباسية قبل اغارة التتار . ولم

يحل بالمسلمين ماحل بهم من الويل الا بعد أن نبذوا العمل بدينهم ظهرياً وأصبح اتباع ماأمرهم به الشرع نسيامنسيا

نشأ الدين الاسلامي على التسامح فقسح من صدره لكل أمة ولم يكتف بذلك بل أخذ على عاتقه حمايتهم اذااحتموا به وتأمينهم اذا استأمنوه ولم يرو عنه شئ من ارتكاب الفظائع التى سمعنا بمثلها فى تاريخ الشهداء فى مصر من نحو ماأصاب القبط من الرومان ولا ماأصاب العلماء والفلاسفة فى أسبانيا ولا ماأصاب البروتستانت في فرنسا. وليس هذا التسامح خلقاً في أعلام المسلمين وأمرائهم يذهب بذهابهم بل هو أصل من أصول الدين نفسه. قال تعالى: « لا اكراه فى الدين » وقال: « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم »

وقد خاطب تعالى النبي الكريم بقوله: « انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » وقال « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

واذا كان التمدين العصرى لم يصل الى اعلان حقوق الانسان ونشر حرية الاعتقاد الا بعد أن أفنى الفلاسفة أعمارهم وأذابوا فى التفكير وطول النظر والاناة أذهانهم ثم ختموا ذلك بالثورة الكبرى فلقد سبقهم الاسلام بتقرير هذا المبدأ السامي قبل بضعة عشر قرنا فقال: « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »

وما كان لاحد من رجال الدين الاسلامي وفيهم شيوخ الاسلام

والخلفاء أنفسهم أن يغيروا أو يبدلوا فيما قضى به الله في كتابه ذلك الكتاب الكريم الذى هو المعجزة المستمرة الظهور وليس هناك من كتاب جمع بين دفتيه ماجمع القرآن الكريم

من أجل هذا لم يكن لطاعن أن ينال من ذلك الدين القيم منالا ولو ارتفع فكه الاعلى الى أعنان السماء وانخفض فكه الاسفل الى صميم الارضين . قل لو اجتمعت الانس والجن علي أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

ولقد عجبت من قوم يفترون على هذا الدين القويم من الاباطيل مايفترون ويعزون لذلك الكتاب الكريم من الاضاليل مايعزون مما تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هداً

وما كان عجبي الا من الاطلاع على تلك الطقوس الغريبة التى تستعمل فى بعض الكنائس بصورة رسمية لتنصير المسلمين كأنهم من عباد الاصنام

فلقد نقل سعادة فتحى زغلول باشا فى آخر معربه — الاسلام — الصيغة المستعملة فى الكنيسة اليونانية لخروج المسلم عن دينه

ولقد ذكر الكونت دى كاسترى انه نقل هذه الصيغة (١)

---

(١) هذا نص الصيغة المذكورة نقلا عن الصحيفة ١٥٧ ومابعدها من كتاب الاسلام

يجب على المريد أن يصوم أسبوعين ويتعلم الصلاة التي علمنا اياها سيدنا عيسى اليسوع في أناجيله المقدسة وكذلك علامة الدين وبعد ذلك يلبس القس ثوبه الكهنوتي ويأتى بالمريد الى حظيرة التكريز بحضور المؤمنين الذين يرغبون فى الحضور ويوقفه امام

من اللغة اللاتينية الى اللغة الفرنسية عن كتاب سيلبورج المطبوع سنة ١٥٩٥

على أن الكونت قد أحسن صنعا بنعته هذه الصيغة بالغرابة وانها مشتملة على خرافات من السباب

لاجرم أن واضعي هذه الصيغة قدضلوا ضلالا بعيداً فى فهم الاسلام وغلوا فى الكراهة لرسول الله وكتابه المنزل الذى يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر وأثبتوا انهم أشد أعداء الاسلام تعصباً وأقلهم ادراكا لحقائق الاشياء

ومن قصور النظر وضعف الحجة أن يمدح المرء دينه بسب دين غيره ويحاول رفع قدره بالحط من كرامة سواه. ليقل كل في دينه

الهيكل مكشوف الرأس ثم يقول له أنت يامن يترك اليوم ديانة بنى سارة من غير ان تكون مجبراً على ذلك ولا خائفاً أو مغشوشاً بل باختيارك عن طيب نفس وقلب طاهر محب للمسيح ودين المسيح قل كما أقول انى أقلع عن ديانة بنى سارة كلها والعزم.... (وذكر اسم محمد صلى الله عليه وسلم) الذي يمجده بنو سارة ويقولون انه نبي الله ورسوله فيظهر المريد رضاه بنفسه ان كان يعرف اللغة اليونانية أو بواسطة مترجم ان جهلها أو بواسطة وصيه ان كان قاصراً ويتلو القس بعد ذلك الصيغة الآتية والمريد يكررها من بعده فاذا تم القول قال القس فلندع الرب. والناس يجيبونه: رب ارحم الى آخر صيغة الدعاء ويختمون بلفظة آمين ويبارك القس للمريد ويصرفه ويصير نصرانياً من اليوم التالى لهذا الاحتفال

أما مايقوله القس ويكرره المتنصر فهو مايأتى :

أنا الذي فى هذا اليوم أترك ديانة بنى سارة حباً فى الديانة المسيحية بغير أدني اكراه ولا اضطرار ولا غرور ولا غواية بل عن طيب نفس محبة في المسيح ودين

ما يريد وينسب اليه من التعاليم مايستطيع أن ينسب ولكن هذه الارادة لا تقتضى لعن الارض والسماء ومابينهما دلالة على الابتعاد عن ذلك الدين

كتب الكثير من ذوى الفضل فى الدفاع عن الاسلام ورد شبهات المبطلين فما رأينا واحداً شط ذلك الشطط الذى صوره الكونت دى كاسترى فى كتابه ماثلا للعيان

المسيح انى أقلع عن ديانة بنى سارة كلها وألعن (م ....) الذي يمجده بنو سارة ويقولون انه نبي الله ورسوله وألعن ع .... (وذكر اسم الامام على كرم الله وجهه) وصهر النبي والحسن والحسين ولديه وأبا بكر وعمر وطلحة ومعاوية وزيداً واليزيد والسيد وعثمان وجميع صحابة محمد وأنصاره وخلفاءه والعن (وذكر أسماء سيداتنا) عائشة وزينب وأم كلثوم زوجات محمد الاوليات ثم البقية اللاتى هن أكثر جرما ومعهن ابنته فاطمة وألعن مايقال له (ثم ذكر القرآن الكريم) أعني به سفر محمد أو كتابه الذي ادعي انه نزل عليه من السماء على لسان الملك جبريل وكذلك مذهبه بأجمعه وقواعد دينه وقصصه الكاذبة وأسراره وسنته وماأتي به من الكفريات وألعن جنة محمد التى يقول ان فيها أربعة أنهار تجري فيها المياه العذبة ولبن لايحمض وخمر لذيذ وعسل نقى ويقيم فيها بنو سارة يوم القيامة التى تقوم بعد خمسمائة ألف عام مع نسائهم منهمكين فى الشهوات البدنية ويجلسون تحت شجرة سدره ويأكلون من الطيور مايشتهون وجميع فواكه الخريف ويشربون من عين الكافور وعين الزنجبيل التى تسمي سلسبيلا ويشربون أيضاً نبيذاً مزاجه من تسنيم وتعظم أجسامهم حتى تبلغ السماء طولا رجالا ونساء ويتمتعون بالعشق والغرام بدون ملل بحضرة الله لانه يقول : ان الله فوق كل حياء وألعن (ثم ذكر الملائكة) الذين يسميهم محمد هاروت وماروت . وألعن أحاديث محمد وماقله عن العهد القديم وألعن ذلك المذهب الكاذب وذلك الوعد الذي يدعي فيه محمد انه سيكون فاتح الجنة وانه يدخلها سبعون ألفاً من بنى سارة الصادقين وان الله يحكم في المجرمين فيغلون بالسلاسل من رقابهم ثم يدخلون الجنة أيضاً ويقال لهم عتقاء محمد

﴿ رأى السيد جمال الدين الافغاني ﴾

تدبر ماكتبه العلامة فيلسوف الشرق المرحوم جمال الدين الافغانى في ردالشبهات فهل ترى فى عبارته ماينم عن كراهة لدين من الاديان . كلا وهذا نص بعض عباراته فى هذا الشأن

الامة الاسلامية

« جاءت الشريعة المحمدية والديانة السماوية فأشربت قلوبها تلك العقائد الجليلة ومكنت فى نفوسها تلك الصفات الفاضلة وشمل ذلك آحادهم ورسخت بينهم تلك الاصول الستة بدرجة يقصر القلم دون التعبير عنها فكان من شأنهم أن بسطوا سلطانهم على رؤوس الامم من

وألعن (ثم ذكر شريعة محمد صلي عليه وسلم) فى الزواج والطلاق وتطهير الزانيات وعدد الزوجات والسراري وجميع مذهبه المنجس فى جميع هذه الاشياء

وألعن ماجاء به م... من السب فى الله (!...) حيث يقول انه يضل من يشاء ويهدي من يشاء وان الله لوشاء لقتل بعضنا بعضاً وانه يفعل مايريد وانه فاعل الشر والخير معاً وهكذا الصدفة والبخت وانهما المؤثران فى كل شئ

وألعن أكذوبة م... التي يقول فيها ان سيدنا وآلهنا عيسى اليسوع هو ابن مريم أخت موسى وهارون وانه ماولد من اللحم بل حملته أمه من روح الله وانه قلد الطيور لما كان صبياً من الطين ونفخ فيها فصارت حية وألعن مذهب م... الذى يقول فيه ان المسيح ليس ابن الله بل نبي الله ورسوله لانه ليس لله شريك وان الذين يقولون ان المسيح شريك لله سيعذبون فى نارجهنم

وألعن قول م... ان لله في مكة بيتاً للصلاة بناه ابراهيم واسماعيل يسمونه الكعبة ويأمر بأن المصلين يولون وجوههم قبله اينما كانوا وألعن ذلك المعبد نفسه الذي يقولون ان في وسطه حجراً كبيراً يمثل الزهراء ويقدسون هذا الحجر الذي يقال بان ابراهيم تعرف عليه بهاجر أو عقل فيه جمله لما أراد أن يقرب اسحاق !! بان

جبال الالب الى جدار الصين فى قرن واحد وحثوا تراب المذلة على رؤوس الاكاسرة والقياصرة مع أنهم لم يكونوا الا شرذمة قليلة العَدد نزرة العُدد ولم ينالوا هذه البسطة فى الملك والسطوة فى السلطان الا بما حازوا من العقائد الصحيحة والصفات الكريمة . هذا الى ماجذبه مغناطيس

الذين يزورون هذا المعبد يضعون احدي اليدين فوق الحجر ويمسكون الاذن بالثانية ثم يدورون حوله حتى يأخذهم الدوار فيخرون الى الارض وألعن (ثم ذكر اسم مكة ذاتها وأرضها كلها والحجارة السبعة التى يرميها فيها بنو سارة ضد المسيحيين وجميع صلواتهم وعباداتهم وشعائرهم ومذاهبهم

وألعن قصة (وذكر اسم محمد صلى الله عليه وسلم) فى الناقة التى يقولون انها خصصت لله فعقروها فانتقم منهم لاجلها وألعن الذين يعبدون نجم الصباح (!....) أعنى بها الزهراء والشعرى التي يسمونها الكبرى وألعن جميع قواعد (وذكر اسم محمد صلى الله عليه وسلم) التى يشتم فيها النصارى ويقول انهم كافرون ومشركون ويهيج بنى سارة علي قتلهم وابادتهم ويقول ان مقاتلتهم هى طريق الله وان من مات من بنى سارة فى محاربتهم يكونون من أبناء الله ولهم الجنة (!....)

وألعن تعاليم م (وذكر الاسم الكريم) النجسة فى الصلاة حيث يقول ان من لم يجد ماء فليأخذ ترابا دقيقاً ويمسح به وجهه ويديه وألعن قول م... ان الانسان خلق من طين وقطرة ماء ودود الحكمة ومادة متأكلة

وفوق ذلك كله ألعن ..... (استغفر الله العظيم) الذي يقول عنه انه اله فرد كامل لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

وعليه ألعن ماتقدم كله وم . . . نفسه و . . . . الكامل (! . . .) وابتعد عنه والتحق بالمسيح وهو الحق وحده واعتقد بالأب والابن وروح القدس

ثم يتبع ذلك تلخيص المذهب المسيحي ويختم المريد الصيغة بالعبارة الآتية

واذا كنت أقول ما أقول عن غش أو خيانة لا عن اعتقاد ويقين وقلب يحب اليسوع فعلي اللعنة ولتكن روحي مع الشيطان

فضائلهم من مائة مليون دخلوا فى دينهم فى مدة قرن واحد من أمم مختلفة مع أنهم كانوا يخيرونهم بين الاسلام وشئ زهيد من الجزية لا يثقل على النفوس أداؤه هكذا كان حال هذه الامة الشريفة من العزة ومنعة السلطان (الى أن قال)

فأفسدوا (أى الطبيعيون) أخلاق الملة الاسلامية شرقا وغربا وزعزعوا أركان عقائدها وساعدهم مد الزمان على تلويث النفوس بالاخلاق الرديئة وتجريدها من السجايا الكاملة التى كان عليها أبناء هذه الملة الشريفة حتي تبدلت شجاعتهم بالجبن وصلابتهم بالخور وجرأتهم بالخوف وصدقهم بالكذب وأمانتهم بالخيانة ووقع المسخ في هممهم فبعد ان كان مرماها مصالح الملة عامة صارت مقصورة على المنافع الشخصية الخاصة وعادت رغباتهم لا تخرج عن الشهوات البهيمية . وكان من عاقبة ذلك أن جماعة من قزم الافرنج صدعوا أطراف البلاد السورية وسفكوا فيها دماء آلاف من أهاليها الابرياء وخربوا ما أمكنهم أن يخربوا وثبتوا بها نحو مائتى سنة والمسلمون في عجز عن مدافعتهم مع أن الافرنج كانوا قبل عروض الوهن لعقائد المسلمين وطروء الفساد على أخلاقهم فى قلق لا يستقر لهم امن على حياتهم وهم فى بلادهم خوفا من عادية المسلمين وكذلك قام جماعة من أوباش التتر والمغول مع جنكيز خان واخترقوا بلاد المسلمين وهدمو كثيرا من المدن المحمدية وأهدروا دماء ملايين من الناس ولم تكن للمسلمين قدرة على دفع هذا البلاء عن بلادهم مع أن مجال خوفهم فى بدء الاسلام على قلة عددهم كان ينتهى الى أسوار الصين

وما نزل بالمسلمين شیء من هذه المذلات والاهانات ولا رزئوا
بالتخريب في بلادهم والفناء في أرواحهم الا بعد ما كلت بصائرهم ونغلت
نياتهم ومازج الدغل قلوبهم وخربت أماناتهم وفشا الغل والادهان بينهم
ودار كل منهم حول نفسه لا يعرف أمته ولا ينظر الى ملته فأصبحوا بقناة
خوّارة بعد أن كانت قناتهم لا تلين لغامز الا أن بقية من تلك الاخلاق
المحمدية كانت لم تزل راسخة في نفوس كثير منهم كامنة في طي ضمائرهم
فهي التي أنهضتهم من كبوتهم وحملتهم على الجد في كشف السطوة الغربية
عن بلادهم فأجلوا الامم الافرنجية بعد مئين من السنين وخلصوا البلاد
السورية من أيديهم وطوقوا الجنكيزيين بطوق الاسلام وألبسوهم
تيجان شرفهم ولكنهم لم يستطيعوا حسم داء الضعف واعادة ما كان لهم
من الشوكة الى المقام الاول فان ما كان من شوكة وقوة انماهو أثر العقائد
الحقة والصفات المحمودة فلما خالط الفساد هذه وتلك تعسر عود السهم
الى النزعة . ولهذا ذهب المؤرخون الى ان بداية الانحطاط في سلطة
المسلمين كانت من حرب الصليب والاليق أن يقال ان ابتداء ضعف
المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد الدهرية في صورة
الدين وسريان هذه السموم القاتلة في نفوس أهل الدين الاسلامي

الشعب الفرنسي

شعب كان قد تفرد بين الشعوب الاوربية باحراز النصيب
الاوفر من الاصول الستة فرفع منار العلم وجبر كسر الصناعة في قطعة
أوربا بعد الرومانيين وصار بذلك مشرقا للتمدن في سائر الممالك الغربية

وبما أحرز الفرنساويون من تلك الاصول كانت لهم الكلمة النافذة في دول الغرب الى القرن الثامن عشر من الميلاد المسيحي حتى ظهر فيهم (ڤولتير) و(روسو) يزعمان حماية العدل وأحييا ما بلي من عظام الناتور اليسم (الطبيعيين) ونبذا كل تكليف ديني وغرسا بذور الاباحة والاشتراك وزعما ان الآداب الالهية جمليات خرافية كما زعما ان الاديان مخترعات أحدثها نقص العقل الانساني وجهر كلاهما بانكار الالوهية ورفع كل عقيرته بالتشنيع على الانبياء (برآهم الله مما قالا) وكثيراً ما ألف ڤولتير من الكتب في تخطئة الانبياء والسخرية بهم والقدح في أنسابهم وعيب ماجاؤا به فأخذت هذه الاباطيل من نفوس الفرنساويين ونالت من عقولهم فنبذوا الديانة العيسوية ونفضوا منها أيديهم وبعد ان أغلقوا أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة في زعمهم شريعة الطبيعة وزادبهم الهوس في بعض أيامهم حتى حمل لفيفاً من عامتهم على أن يتناولوا بنتا من ذوات الجمال فيهم ويحملوها الى محراب الكنيسة ونادى زعيم القوم : « أيها الناس لا يأخذكم الفزع بعد اليوم من هدهدة الرعد ولا التماع البرق ولا تظنوا شيئاً من ذلك تهديداً لكم من اله السماء يرسله عليكم ليعظكم به ويزعجكم عن مخالفته كلا فهذه كلها آثار الطبيعة (الناتور) ولا مؤثر في الوجود سواها خلوا عن أعناقكم قيود الاوهام ولا تقيموا لانفسكم الها من خواطر ظنونكم وان كانت العبادة من رغائب شهواتكم فهاهي العذراء قائمة في المحراب على مثال الدمية فاسجدوا لها ان شئتم »

والاضاليل التى بثها ڤولتير وروسو هى التي أضرمت نار الثورة الفرنساوية المشهورة ثم فرقت بعد ذلك أهواء الامة وأفسدت أخلاق الكثير من أبنائها فاختلفت فيها المشارب وتباينت المذاهب وأوغلوا فى سبل الخلاف زمناً يتبعه زمن حتي تبيّن صدعهم وذهب كل فريق يطلب غاية لا يرى وراءها غاية وليس بينها وبين غايات سائر الفرق مناسبة وانحصر سعى كل قبيل فى التماس مايوانى لذته ويوافق شهوته وأعرضوا عن منافعهم العامة وأعقب ذلك طروء الخلل لسياستهم الخارجيـة شرقا وغربا (لعله يشير الى حالة فرنسا أيام وضعه هـذا الـكلام منذ نيف وأربعين عاما)

نعم ان نابليون الاول بذل جهده فى اعادة الديانة المسيحية الى ذلك الشعب استدراكا لشأنه لـكنه لم يستطع محو آثار تلك الاضاليل فاستمر الاختلاف بالفرنساويين الى الحد الذى هم عليه اليوم. هـذا الذى جر الفرنساويين للسقوط فى عار الهزيمة بين يدى الجرمانيين وجلب اليهم من الخسائر ما تعسر عليهم تعويضه فى سنين طويلة» — انتهى —

*
* *

هذا لسان صدق من ألسنة المسلمين ينطق على خصمائهم بالحق ويعير غير المستمسكين بدينهم من المسيحيين ويقول لهم ان نبذهم الدين انما هو الذى عاد عليهم بالانهزام أمام أسياف بروسيا وهو فى جداله انما يجادل بالتى هى أحسن معتمداً على قوة الحجة والبرهان. فأين هذا من عمل أولئك الحمقى الذين يعتمدون في تأييد دينهم على السباب والشتائم واللعنات الوقحة

حتى وهم قائمون يصلون فى الكنائس كما أثبت الكونت دى كاستري ذلك

﴿ رأي الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ﴾

ولم يكن المرحوم السيد جمال الدين الافغانى وحده هو الذى تفرد بهذه المنزلة السامية فى جدله بل ان نابغة الشرق ونبراس مصر المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الاسبق كان وهو فى أشد انفعال فى جداله مع وزير خارجية فرنسا يتنكب الحط من دين خصمه واليك نبذة من قوله فى هذا المعنى

*
* *

« هذه هى العقيدة السامية أو الدعوة المحمدية أو المدنية الاسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة فى قاصية من الارض ولم يتلمظوا بشئ من نعيم الحضر ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة حتي بلغت بهم مابلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل مبلغاً مكنهم من التلطف بالامم حتى وقعوا على ما كان خفياً لديها وكشفوا ما كان مستوراً عندها واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الاوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية » — انتهى —

*
* *

فعلى هذا الوتر يوقع كبار الكتاب الاسلاميين نغمات البحث مع المسيحيين فلا يؤلمون لهم عاطفة ولا يحركون عليهم من حفيظتهم ساكناً ولا يثيرون فى نفوسهم ماكان كامناً بل هذا سعادة معرب كتاب الاسلام لم يغمز دين المسيحيين بكلمة والقلم فى يده يألم من وطأة ماينقله

الى لسان أمته من كلم أولئك الذين روى عنهم الكونت دي كاستري ماروى وكل هذا عملا بالتسامح الاسلامي الذى ذهب مثلا بين العالمين

* * *

وخير من كتب على هذا الاسلوب فى العهد الاخير حضرة الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش نزيل الاستانة الآن

فلقد وضع وهو استاذ للغة العربية فى جامعة اكسفورد بانكلترا كتاب — الاسلام دين الفطرة — فما ترك بعده كلمة لقائل ثم قدم كتابه الى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى الجزائر فبهت الذين تذوقوا طعم البلاغة وقوة الحجة من خلاله وقد طبع فى سنة ١٩٠٥ ونفد ماطبع منه وتشوف العارفون بقدر الاستاذ الى اعادة طبعه

وقد خار الله لي وأنا أقلب صحائف الكتب على أثر نظرتى فى كتاب « الاسلام » للكونت دى كاسترى ان عثرت على نسخة لدى صديق من أفاضل مريديه قد قيد الاستاذ بخطه فى هامشها شروحا وتفصيلات لم تكن فى أصل الكتاب فزادته قوة حجة وجلاء شرح وقد رأى ذلك الصديق الصادق ان أبلغ رد على من تصدى صاحب كتاب الاسلام لتفنيد مزاعمهم هو نشر مطوى ذلك الكتاب فكنت على رأيه لان الاستاذ أقدر من كتب على صد غارة الاقلام والذود عن حمى دين الاسلام

لذلك أرجو أن أكون قد سلكت المحجة الواضحة واهتديت الى الصراط المستقيم وان فى ذلك الكتاب لعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد

أحمد حلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

زارني ذات يوم وأنا فى اكسفورد من بلاد الانكليز لفيف من نجباء طلبة العلم فى كليتها الجامعة فما كاد يستوى بهم المجلس حتى أخذنا نتحادث فى أمر الشرق والشرقيين ومالهم من الاخلاق والعادات والاحوال التي تباين فى كثير من الوجوه ماعليه أهل أوروبا الآن حتى أفضى بنا المقام الى الكلام فى الاسلام فوجدت من خلال حديث القوم انهم لايكادون يفقهون للاسلام معنى سوى انه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات وأن المسلمين يعبدون محمداً كما يعبد النصارى المسيح بن مريم ومازادونى فيهم بصيرة فلطالما قابلت من أمثالهم ماأوقفنى على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف

فأخذت اذ ذاك أبين لأولئك الافاضل أصول الدين الاسلامى وقواعده وحكم بعض تكاليفه فكنت أرى القوم يتدبرون ماأقص عليهم من غير أن يستهوى نفوسهم تعصب ولايعمى قلوبهم عناد أوجحود بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد من النقائص التى مثلت لهم الاسلام في أبشع صورة وأقبحها ولم يكد ينتهي بنا

الحديث حتى انطلق أحدهم قائلا «يخيل لي أيها الشيخ ان هذا الدين لا ينافى الفطرة فى شئ» (Natural religion) فأجبته اذ ذاك — وقد تذكرت قوله عليه السلام (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه) نعم وكذلك سماه النبي عليه السلام وترجمت لهم ذلك الحديث الشريف ثم عنّ لي بعد ذلك أن أضع عجالة فى بيان معنى كون الاسلام دين الفطرة وتوجيه ذلك ولما دعيت الى هذا المؤتمر الجليل وجدتها أحسن فرصة أتشرف فيها بعرض ماعنّ لي بين أيدى أعضائه الاماثل لعلى أسعد بقبولهم لما جلبته من بضاعتى المزجاة فأقول والله المستعان

١

الحديث

روى البخارى عن أبى هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مامن مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها) وقد اختلف المفسرون كعادتهم في المراد من كلمة الفطرة فذهبوا طرائق قدداً

والذي يفهم من تعقيب ذلك فى الحديث بقوله عليه السلام فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه الخ أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ علي الانسان بكسب أبويه كالجدع الذي يصيب الشاة بعد ان تولد على الفطرة سليمة لاعيب فيها

واعتبر ذلك بما نص عليه الشرع الاسلامى من عدم

تكليف القاصرين والاّ يؤاخذوا بما فعل اباؤهم من التهويد والتنصير حتى يبلغوا راشدين راضين بدين آبائهم فيؤاخذون اذ ذاك وقد ألقيت علي كواهلهم أعباء التكاليف بما كسبت أيديهم

فترى الاسلام قد اعتبر القاصرين ولو أبناء النصارى أو اليهود أو المجوس مسلمين ناجين حتى يكلفوا . فالدين الفطري لكل مولود هو الاسلام الا فيما يتعلق ببعض المعاملات الدنيوية كالارث ونحوه فان الاطفال فى ذلك تابعون لآبائهم

(وبعد) فانا نريد أن نذكر لك وجه كون الاسلام دين الفطرة وأنه لو ترك الطفل وشأنه حتى كبر غير مهوّد ولا منصّر لما اختار بفطرته الا الاسلام فانه لايمكن توضيح ذلك الا بالبحث في بعض أصول الاسلام وقواعده والاغراض التى يرمى اليها الشارع في تكاليفه فنقول



الفطرة والتوحيد

كل انسان يشعر فطرة بأن ثمة واحداً قد نظم هذا العالم ودبره لايمكن أن يشابه الممكنات في شئ من صفاتها فليس بجسم ولا عرض ولا محدود ولا متحيز لا يستطاع ادراكه الا بآثاره الشاخصة غير قابل للحلول ولا للصعود ولا للنزول

الى ذلك اهتدى الاعرابى بفطرته فقال « البعرة تدل على البعير وأثر الاقدام يدل علي المسير . فسماء ذات أبراج . وأرض ذات فجاج

كيف لاتدلان على اللطيف الخبير » فجاء الاسلام مصدقالما اقتضته الفطرة السليمةولم يزد فى الاستدلال شيئاً سوى أن أيقظ العقول ونبهها الى النظر فى آثار الله تعالى فما عليك الا أن تتصفح القرآن الكريم فتجدذلك في أكثر من آية من آياته

نعم ربما قال انسان انه لو كان التوحيد فطريا لما اختلف الناس فى عقائدهم وتباينوا في تصوير آلهتهم فذهبوا كما نعلم مذاهب شتى حتى لاتكادتجد تشابهاً بين آلهتهم . فسنحقق لك بعد أن هذا مباين لمقتضى الفطرة اذ منشأذلك ان الانسان ميال الى الاعتماد على مايقع تحت حواسه من الكائنات والى انكار ماليس له في ذهنه صورة ولاحدود محصورة

(فمن) ذلك ماقصه الله فى شأن معاندي أهل الكتاب حيث قال (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعدماجاءتهم البينات)

ومن البديهى أن الشيء لايصح انكاره الا اذا ثبت بالبرهان القطعي عدم وجوده أما مجرد عجز المدارك عن تصوره وتحديده والاحاطة به فمن العجب أن يتخذه ذو عقل برهاناً ينفى به وجود الشيء وأعجب من ذلك أن ترى أكثر المتحككين بأهل العلم في هذا العصر على هذا المذهب العجيب الذى هو آية الجهل ونهاية الحمق

جاء الاسلام فى وصف الحق واثباته بما يطابق مقتضى الفطرة والعقل تمام المطابقة أفلا تدبرت قوله تعالى (الله لااله الا هو الحى

القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم له مافي السموات ومافى الارض من ذا الذى يشفع عنده الا بأذنه يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشئ من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولايؤده حفظهما وهو العلى العظيم)

لقد جمعتنى المصادفات برجل مسلم من الانجليز لم يرج من اسلامه شيئاً من حطام الدنيا ولا أن ينال جاها يتخذه عدة لنيل شئ من الرغائب السياسية فقال لي ان فى القرآن الكريم آية لا أملّ من تكرارها ولا من ترديد النظر فيها جاءت فى وصف الله تعالى بما ليس فى استطاعة أحد من أئمة الاديان الاخرى على ذكائهم وسعة اطلاعهم أن يأتوا به ثم تلا بالانجليزية تلك الآية الكريمة آية الكرسى . فبأبيك أيها العربى هل مرت تلك الآية مرة على سمعك الا وأنت لاه عنها تلعب أو حركت بها لسانك الا وأنت بها تعجل

هذا وتتميما لموضوع التوحيد أريد أن آتيك هنا بكلمات عثرت عليها[1] للورد ماكولي الكاتب الانكليزي الشهير اذ قال ماترجمته :

« ان علماء المنطق قد بنوا عقائدهم وقضاياهم على البرهان العقلى فأمكنهم أن يسلموا القول بأن من الاشياء مالا يمكن للعقل أن يحيط به بخلاف السواد الاعظم من العامة فان معظم أفكارهم وقضاياهم اما خيالية أو وهمية أو شعرية فلا يكادون يبنون شيئاً من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم ومن هنا نشأت كما

---

1 see the essay on milton

يظهر الاديان الوثنية فى كل أمة وفى كل جيل فى كل زمن فاختلفت لذلك صور الآلهة باختلاف ماصوره خيال معتقديها

ولطالما أذن فينا التاريخ ببيان ماأدخل اليهود قديما فى دينهم من البدع مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة ان يكون لهم اله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والاجلال . ويمكن القول بأن معظم الاسباب التى ذكرها «جيبون» وجعلها أساس انتشار الدين النصرانى لم تؤثر ذلك الاثر ولم تنشر ذلك الدين في أطراف الارض الا لانها كانت مشفوعة بكثير من تلك القضايا الوهمية التي كان لها اكبر سلطان على نفوس السذج من العامة فان الها لم يخلق وكائنا لاتدركه الابصار ولاتحيط به الظنون لم يقل به الا الفلاسفة العالمون اما الاخلاط ضعاف العقول من الناس فانهم ضاقت دائرة افكارهم وانقطعت سلسلة ادراكهم عن ان تصل الى القول باله ليس له صورة محدودة فى نفوسهم فكانوا يتأففون ويهزءون ويضحكون من أولئك الفلاسفة راميهم بالبله او قصور الذهن

طاشت النفوس فى الازمنة القديمة وضلت الصراط السوى وقست القلوب وانتهكت الحرمات فجاء المسيح عليه السلام واخذ يعلّم الناس ويدعوهم الى ماجاء به من الهدى فمنهم من آمن ومنهم من كفر

ولم يسلم تابعو المسيح من النصارى ان يصيبهم فى ايمانهم مثل ماأصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم فتمثل الاله لهم فى صورة آدميّ مشى بينهم وشاركهم في أغراضهم ومايعتريهم من الانحلال

والاضمحلال كما كان يبكى على القبور وينام فى الحظائر ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب فظهروا بذلك للعالم فى لباس جديد من الوثنية ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان فكان القديس جورج لديهم اله الحرب كما كان المريخ عند اليونان وكذلك اتخذوا العذراء وسيسليا cecilia وغيرهما آلهة الجمال وفنون الادب كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى (the Muses) ألهات لدى اليونان وهلم جرا

ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يزيلون مالصق بعقول العامة من تلك الصور الوهمية ولكنهم لم يفلحوا

تجد العامة الى هذا اليوم يتعشقون سماع كثير مما لامعنى له من الخزعبلات ويتهافتون على تلقف سير بعض من لاقيمة لهم فى سوق الفضائل والمكرمات أكثر مما يميلون الى تعرف وتفهم شيء من قواعد الدين الاساسية » انتهى ببعض تصرف

هذا ماقاله اللورد ما كولي في شأن الدين الذى يعتنقه ويذعن له وفى الامم التى شاركته فى الاخذ به وبيان أحوالهم فتذكرت هنا والحديث شجون ماأصاب عقول المسلمين من المس الذى أصاب عامة غيرهم . أفرأيت الذين يذهبون الى الاضرحة فيعفرون وجوههم بترابها ويتضرعون الى من فيها متوسلين بهم الى من هو أقرب اليهم وأسمع لدعائهم وأقدر علي اصابتهم وأحق بعبادتهم وخشوعهم (قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لانفسهم نفعاً ولا ضراً . أأله مع الله

أمر أن لاتعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) والخلاصة ان السبيل التى جاء بها الشرع الاسلامي فى الايمان بالله وتقديسه عن الحلول ومشابهة الغير وتوحيده بالعبادة دون كائن غيره هى السبيل التى يصل اليها الانسان بفطرته متى خلى وشأنه غير مضلل ببعض الاباطيل ولا مدفوع الى غير تلك السبيل

بسم الله الرحمن الرحيم (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)

٣

النبوة وتقريرها والغرض الفطرى منها

ظهر النبي صلى الله عليه وسلم فى أمة أمية دينها الوثنية ومن أخلاقها الكبر والغطرسة والعناد ووسائل ارتزاقها السلب والنهب فلما جاءهم الرسول بالحق الواضح اختلفوا فمنهم من آمن به ومنهم من صدّ عنه

كان معاندو اليهود والمشركين يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام أن يثبت دعواه النبوة بشئ من المعجزات الخارقة للعادة فكان صلى الله عليه وسلم يرجع بهم الى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل اذلا علاقة عقلية بين دعوى الرسالة والقدرة على شق الارض ونحوه من المعجزات ولقد نقل عن ابن رشد ان الآيات الاقتراحية لا تدل دلالة قطعية على دعوى الرسالة اذ جاءت منفردة لانها ليست من أفعال الصفة التي سمى بها النبي نبياً أو الرسول رسولا ولذا كان النبى صلي الله عليه وسلم يرجع بالقوم الى ماهو من حدوده

والى تدبر ماجاء به القرآن الكريم من الهداية فان دلالة القرآن على هذه الصفة كدلالة الابراء على الطب لمن يدعيه قال تعالى (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) ولطالما تنصل النبى صلى الله عليه وسلم من اجابة مطالب العرب وأرشدهم الى ماقصد من شريعته وهو اصلاح شأن العالم الانسانى والقضاء على ماكان سائداً فيهم من الضلال المبين قال تعالى (قل لاأقول لكم عندى خزائن الله ولاأعلم الغيب ولاأقول لكم انى ملك ان اتبع الا مايوحى الي قل هل يستوى الاعمى والبصير أفلا تتفكرون) وجاء فى سورة الاسراء (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشراً رسولا)

كم حذّر النبى صلى الله عليه وسلم الناس من اللجاج فى طلب المعجزات وبيّن لهم وخامة عواقبها وسوء نتائجها فمن ذلك قوله تعالى (ومانرسل بالآيات الا تخويفاً) وقال (قل انى على بينة من ربى وكذبتم به ماعندى ماتستعجلون به ان الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين قل لو ان عندى ماتستعجلون به لقضى الامر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين)

لم يكن طلب المعجزات من النبى عليه السلام ناشئاً عن تروّ من العرب وصدق رأى وسلامة فطرة واصرار منهم على أن لا يقبلوا شيئاً الا ببرهان ولكنهم كانوا يقترحونها اما عبثاً أو عناداً أو عملا بما تلقفوه عن الجاهلية الاولى وما أملت عليهم نفوسهم التى أخذ الضلال بتلابيبها فكان النبي عليه السلام يدعوهم الى العمل بمقتضيات الفطرة الانسانية وبطلب مالا يخالف سنة الله التى لن تجد لها تبديلا قال تعالى (وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله ومايشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون . ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) أراد الله الحكيم أن يبيّن للناس ان تلك الآيات التى يطلبونها لاتصلح مفحما لهم وحجة قائمة تلزمهم اتباع شرعه اذ مثلها فى ذلك مثل من ادعى ان ٢+٢=٥ وبرهن علي ذلك بابرائه مريضاً من داء عضال فان المدعى بها أتى من الامور العجيبة وخوارق العادات مالا يستطيع أن يحمل أحداً على اعتقاد دعواه التى أتى بها ومن هنا كان الاقدمون من اليهود وغيرهم يؤولون مايأتى به أنبياؤهم من المعجزات فقائل انها سحر وقائل انها من أعمال الجن المسخرة لهم حتى اذا ضاقت عليهم الاسباب لجؤا الى التماس أسباب أخرى غير معقولة كاعتذارهم بعجز افهامهم عن ادراك معنى تلك الآيات مع اصرارهم على الجحود

والانكار كما قال تعالى (وقالوا قلوبنا غلف) وقال تعالى (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) فكانوا يقفون بعد ان تأتيهم الآيات موقف المحارب لله العابث بآياته فيصيبهم مايصيبهم من العذاب والانتقام لما حاربوا الله ورسله وسخروا منهم وتلاعبوا بما جاءوا به من الآيات

طالما كذب المشركون النبى صلى الله عليه وسلم كما فعل أسلافهم وناله من عنائهم ولجاجهم في طلب المعجزات ومغالاتهم فى العناد ما كان يحزنه ويكاد يطلق لسانه ان يستعجل بهم السوء ولو كانت الخوارق فى يد النبي صلي الله عليه وسلم وكانت من البراهين التى تصح لالزام الخصم واخامه لما قعد بالنبي عليه السلام أمر عن الاتيان بها ولكنها كلمات الله التى لا مبدل لها وسنته التى لا تتغير (وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقاً فى الارض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين)

والخلاصة اننا نرى القرآن فى غير موضع يؤذن فى أرباب العقول بالتدبر وان لا يشطوا فى مطالبهم ولا يعتسفوا فى اقتراحاتهم بل أوجب عليهم أن يسلكوا الجادة الموصلة الى ما يريدون من الغايات. ومن البين أن القرآن هو المعجزة الخالدة الابدية التى جاء بها ذلك النبى الامي عليه الصلاة والسلام حجة بالغة بين يديه ونوراً مبيناً يهدى به الله من اتبع رضوان سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ولذلك نرى القوم كلما اشرأبت نفوسهم الى نزول احدى المعجزات أمرهم الله

بتدبر آيات القرآن الكريم . فمن ذلك قوله تعالى (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عندالله وانما أنا نذير مبين أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)

نزل القرآن الكريم ليؤدي ماقصد منه حسب الفطرة البشرية والسنة الالهية من الهداية من الضلالة والشفاء من الجهالة ومازال القرآن اماما يتبع وفيصلا يحكم فى النوازل حتى ساد الجهل وأخذ من المسلمين مأخذه فاستعملوا آيات القرآن فى غير ماوضعت له فاتخذوها للتطبب والفتك بالاعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات وتسخير الجن وتوسيع الرزق وليتهم وقفوا عند ذلك الحد بل تراهم تطرفوا واجترؤا على القرآن ومنزله فأولوا القرآن طبقا لاهوائهم وأخرجوا كثيراً من آياته عن معانيها التى تقتضيها لغته وأسلوبه وسياقه أمارأيتهم كيف يفهمون قوله تعالى (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) وقوله (شفاء لما فى الصدور) وقوله (لهم مايشاؤون عند ربهم) وقوله (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما) وقوله (ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) وقوله (ألم نجعل الارض مهاداً والجبال أوتاداً) الى نحو ذلك من الآيات وان شئت أن تعرف ماأتى به بعض المفسرين فى تفسير هذه الآيات وأمثالها من الافك المبين والجهل الفاضح فارجع الى ما كتبوا . ولنضرب لك مثلا شيئاً مماكتبوه فنقول :

(١) جاء فى الجزء الثانى عشر من تفسير الطبرى عند الكلام على قوله تعالى (وقيل ياأرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين) حديث موضوع فى وصف سفينة نوح حيث قال عن ابن جريج انه قال كانت السفينة أعلاها للطير ووسطها للناس وفى أسفلها السباع وكان طولها فى الجو ثلاثين ذراعا ودفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجب وأرست على الجودى يوم عاشوراء ومرت بالبيت فطافت به سبعا وقد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت اه

(٢) وجاء في كثير من التفاسير في تأويل قوله تعالي (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) — فى سورة الرعد — ان الضمير فى «له» عائد الي من ذكر اسم الله وان المعقبات الملائكة تتعقب على العبد وذلك ان ملائكة الليل اذا صعدت أعقبتها ملائكة النهار فاذا انقضى النهار صعدت ملائكته ثم أعقبتها ملائكة الليل ورووا فى ذلك حديثاً عن كنانة العدوى قال دخل عثمان بن عفان على رسول الله فقال أخبرنى عن العبد كم معه من ملك قال ملك على يمينك على حسناتك وهو أمين على الذي على الشمال . . . . . وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لله رفعك واذ تجبرت على الله قصمك وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك الا الصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام وملك على فيك لا يدع الحية تدخل اليه . وملكان

علي يمينك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي ينزلون وملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا علي كل آدمي وابليس بالنهار وولده بالليل اه

ولايخفى ان هذا الحديث مكذوب علي حضرة النبي على انه مع ذلك سخيف العبارة ساقطها . وأغرب من ذلك حمل القرآن عليه وتأويله به مع ان سياق الآية لايكاد يحتمله بوجه من الوجوه فان سياق الآية كان فى التكلم على علم الله واحاطته بجميع الكائنات وعلى عظمته وتعاليه المتناهي الذى يغلب معه كل مغالب ولايقى الانسان دونه أى حافظ اذ قال (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) فالمستخفى بالليل والسارب بالنهار المتخذان لهما حرسا وجلاوزة سواء عند الله فلا الاستخفاء بحاجب المستخفى عن الله ولا الحرس يدفع عن الانسان مايقضى به الله على عباده . ثم بينت الآية ان سنة الله فى خلقه ربط الاسباب بمسبباتها نخفاء الاسباب أو كتمانها لايحول دون تحقق نتائجها فان الله الذى جعل ذلك الرباط رباط السببية مطلع على خفايا الامور محيط بما تجنه الضمائر فلا يغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فاذا تحققت أسباب أى قضاء وأراد الله تعالى تحقيق ذلك فلا مرد له ومالهم من دونه من وال فلا ينفع الانسان اذ ذاك حرس كثيف يتعاقب عليه دائما ليقيه شر الحوادث هذا مايفهم من الآية وسياقها فعجبا لاولئك المفسرين أرادوا أن يؤولوها ذلك التأويل الشاذ فلما لم يساعدهم على ذلك نظم الآية قالوا ان

الضمير فى قوله تعالى « له معقبات » يعود على من ذكر اسم الله تعالى وهذا لا أثر له أصلا فى الآية هذا فضلا عما عملوه من تفكيك نظام الآية اذ قطعوا الحال من صاحبها وفرقوا بين الاجزاء التى تتألف منها

(٣) ومن ذلك ماقاله بعضهم فى تأويل قوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها) بسورة القدر — حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم السموات السبع والارضين السبع كانت له لقمة واحدة أو هو ملك رأسه تحت العرش ورجلاه فى آخر الارض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفى كل وجه ألف فم .... الي آخر السلسلة المعروفة فانظر الى هذه الخزعبلات التى يحملون عليها كتاب الله تعالى

(٤) ومن ذلك أيضا ما أتى به كثير من المفسرين فى تأويل قوله تعالى (يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) اختلف أهل التأويل فى ذلك فقال بعضهم يمحو الله مايشاء من أمور عباده فيغيره الا الشقاء والسعادة فانهما لا يغيّران وزاد بعضهم الحياة والموت ثم انقسموا فقال بعضهم ان ذلك فى ليالى القدر . وقال بعضهم انه في ليلة النصف من شعبان . وقال آخرون ان ذلك فى كل ليلة . ففى تفسير ابن جرير عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل يفتح الذكر فى الساعة الاولى الذى لم يره أحد غيره يمحو مايشاء ويثبت مايشاء وقال أيضا ان الله يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل فى الساعة الاولى منهن ينظر في الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو مايشاء ويثبت مايشاء واذا شئت ان تستقصى

ماقالوه في أمثال هذه الموضوعات فعليك بكتبهم

ولعلك تتطلع نفسك الى تفهم معنى المحو والاثبات هنا فنقول قبل أن نحقق لك معناهما نذكر لك الآية بتمامها ليتجلى لك معناها.

قال تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله لكل أجل كتاب يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) انقسم أهل الكتاب على النبي عليه الصلاة والسلام فمنهم أحزاب كانوا يفرحون بما أنزل عليه من الاحكام كما كان من الاحزاب من ينكر بعضها ويستقبح ما كان يفعله المصطفى صلى الله عليه وسلم من التزوج والأكل والشرب ونحوها من أعمال الدنيا (وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق) وكذلك كانوا كلما سألوا المصطفى صلى الله عليه وسلم شيئاً من الآيات الخارقة للعادة كاغاضة المياه ونقل الجبال واحياء الموتى لايجيبهم الى شئ من مطالبهم واقتراحاتهم كما قدمنا فكانوا يستضعفونه وينزلون من شأنه ويعتبرونه عاجزاً لاينبغى له أن يدعى النبوة فرد الله على أولئك القوم وبيّن لهم أن تلك الاشياء لاتنافى الرسالة فى شيء فقال (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك كآدم وابراهيم وموسى وداود وجعلنا لهم أزواجا وذرية) كما بيّن ان التصرف فى الكون والاتيان بخوارق العادات ليس الا لله تعالى فقال وما كان لرسول أن يأتي باية الا بأذن الله الذى هو خالق كل شئ فهو الذى يمحو مايشاء محوه ويثبت مايشاء اثباته طبقاً لما سبق فى علمه القديم كما يدل عليه قوله تعالى وعنده أم

الكتاب اذ معنى أم الكتاب أصله وأصله هو العلم القديم الذى لاتتعلق قدرة ولا ارادة بشيء الا طبقاً له . وبالجملة انه لم يقصد من قوله تعالى (يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) الا مجرد تأكيد مااستفيد من قوله قبل ذلك وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله . هذا هو معنى الآية الكريمة فاضرب بغيره عُرض الحائط ولا تبال ولأحذرك مما يعتقده بعض الناس مستدلين بهذه الآية من ان الله تعالى قد يغير ماسبق فى علمه الا الشقاء والسعادة فان هذا يفضى الى القول بأن علم الله القديم ينقلب جهلا تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فالحذر الحذر من قراءة الدعاء المشهور المعتاد قراءته في ليلة النصف من شهر شعبان اذ ورد فيه « اللهمّ ان كنت كتبتني عندك فى أم الكتاب شقياً أو محروماً أو مطروداً أو مقتراً عليّ فى الرزق فامح اللهم بفضلك شقاوتي وحرماني الخ » فان معنى ذلك ان الداعى يسأل الله أن يغير ماسبق علمه أزلا الى ماهو من مشتهيات نفس الداعي وان انقلب علم الله بذلك جهلا

عاش النبي صلى الله عليه وسلم ماعاش ثم مضى السلف الصالح من بعده فما سمع أن أحداً منهم فهم من القرآن الا مايدل عليه من حيث هو كتاب عربى مبين ثم خلف من بعدهم خلف افتأتوا على النبي وصالح اتباعه وبرزوا للعالم فيما شاؤا من القحة والدعارة مدعين انهم أعلم بما فى غضون كتاب الله ممن أنزل عليه ذلك الكتاب فتجلوا للقرآن أعداء فى ثياب أصدقاء يلزمونه بما ينكره ويحملونه مالا يحتمله ويفسرونه طبقا لاهوائهم ويكلفونه من التأويل مايكاد يخرجه عن الغرض الذى أنزل

لاجله والله يقول (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً) ويقول (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) ويقول (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا ماكثين فيه أبداً) وكذلك يقول قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه) ولقد أتى القرآن بما يضيق المقام عند استقصائه من أمثال تلك الآيات التى تنطق ببيان الغرض الذى جاء له القرآن الكريم

غفل أكثر المفسرين أو جهلوا الغرض الذى أنزل له هذا الكتاب الكريم كما كلت أفهامهم عن ادراك أمثال تلك الآيات الناطقة بما يرمي اليه فقالوا ان القرآن لم يترك فناً من الفنون العلمية الا أتى بشئ من مسائله فجعلوه كتاب جغرافيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرا وادعوا انه أتى من كل فن بطرف فحملوه من التأويل ماينبوا عنه ثم ذيلوا آياته بأشياء أملاها عليهم جهلهم ووسوست لهم بها شياطينهم فشوهوه وألبسوه غير لباسه وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم براء منه فكانوا أضر عليهم من العدو المبين

لنرجع الى ماذكره أولئك المفسرون فى شرح ارم ذات العماد وثمود الذين جابوا الصخرة بالواد وفرعون ذى الاوتاد والى ماقالوه فى أمر الزلازل والثور الحامل للارض ووصف يأجوج ومأجوج وما سيقيمون من الحرب العوان حينما يرمون السماء بالنبال لمحاربة الحق

تعالى فيأمر الله السماء أن تمطر عليهم دماً الى آخر ماقالوا كما ألفتك الى ماقالوه في تعليل مايشعر به الانسان من سخونة مياه الآبار في الشتاء وبرودتها في الصيف اذا عللوا ذلك بأن ليالى الشتاء طويلة ولما كانت الشمس تغرب فتدخل في جوف الارض كان تأثيرها فى المياه التى فى جوف الارض أثناء الشتاء أكبر من تأثيرها فى أثناء الصيف . هذا بعض ماأتى به أولئك المفسرون ليتمموا به كلام الله تعالى فأضحكوا منهم الصبية والبله فضلا عن العقلاء من الناس كما انهم حملوا غير المسلمين على الاستهزاء بالدين والسخرية بالقرآن الحكيم فلقد رأيت للقرآن ترجمة بالانكليزية يأتي واضعها بما سطر أولئك الجهلة المتعالمون ثم يعقب ذلك بما شاء من الانتقاد والتشهير بدينٍ ذلك كتابه وأولئك أئمته فيالله من الصديق الجاهل

كبر على كثير من الناس القول بان القرآن كتاب مبين يفهمه كل من يعرف لسانه فجعلوا يحومون حول المعاني البعيدة ليحملوا عليها آيات القرآن . ألم تر الى الذين ضلوا وأضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين أحدهما باطنى والآخر ظاهرى وادعوا ان الرسول الذى أتى به لم يصل الى ادراك مافيه من المعانى الباطنية مع انه يقول مامعناه أنا أعلم بكتاب الله تعالى ولو علمتُ باعلم منى به لرحلت اليه أو كما قال

أرعني سمعك أقص عليه ان المتدبر للقرآن يرى ان النبى صلى الله عليه وسلم ماسئل فى شئ مما لم يبعث لاجله الا صرف السائل عن قصده وتلقاه بغير مايترقب تنبيها الى انه الاولى بالقصد والاليق بماهو

من حدود الرسائل ووظائفهم من الهداية والارشاد وتبليغ الشرائع . ينوه الى ذلك قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) وقوله (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج) وقوله (يسألونك عن الساعة ايان مرساها فيم أنت من ذكراها الى ربك منتهاها انما أنت منذر من يخشاها) فبيّن الله فى هذه الآيات ان وظيفة الرسل الانذار وتحذير العالم من تلك الساعة التى هى آتية لاريب فيها وليس وظيفتهم تعيين وقتها ومن ذلك أيضا قوله تعالى (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا) تدلك هذه الآية وماسبق على ماقلناه لك آنفا من ان النبي صلى الله عليه وسلم في اجابته أمثال أولئك السائلين كان يعلمهم أن لايسألوا الا عما هو من خصيصات الرسالة ومتعلقاتها رجوعا بهم الى السنة الفطرية

٤

هل أسس الاسلام على السيف ؟

لهج معظم الاوربيين وضعاف العقول من المسلمين بأن الاسلام لم ينتشر ولم ترسخ قدمه فى عالم الوجود الا لانه سعى والسيوف أمامه تمهد له السبيل وتذلل بين يديه العظماء وتلجئ المستضعفين الى اعتناقه حقنا لدمائهم وصيانة لاملاكهم وأسبابهم وقد ضربوا الامثال بما أقام النبي صلى الله عليه وسلم من سراياه ومغازيه ثم بما عمل خلفاؤه من بعده على انهم لو قرؤا القرآن وشيئا من التاريخ وسيرة النبي صلى

الله عليه وسلم وعرفوا شيأ من أخلاق العرب وعاداتهم فى ذلك الوقت لما تطرق ذلك الخطأ الي عقولهم ولا استحوذت عليهم وساوس صدورهم حتى يرموا النبى صلى الله عليه وسلم وصالح سلفه بما هم براء منه . نعم انه لا يسعنى أن أنكر أنه قد وجد من أمراء المسلمين من شوهوا وجه الاسلام ودنسوه بما جنت أيديهم عليه ولكننى أريد أن أتكلم هنا فى الاسلام من حيث هو كما أريد أن آتى على نبذ من تاريخ أسباب غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وحروبه لترى انه صلى الله عليه وسلم ما بدأ أحدا بعدوان فى جميع ما أقامه من الحروب وما يتذكر الا أولو الألباب

لا حاجة لى أن أذكر هنا ما كان عليه فى بدء الدعوة من الانفراد والضعف وما أصابه من أهله وأقاربه من الأذى فان هذا مما لا يرتاب فيه أحد

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق فجعل النبي يسارّ بدعوته من يثق بتوقد فكره وتمكن الانصاف من قلبه فلم يسل لتأييد رسالته الا سيف الهدي والحجة الدامغة فممن آمن به أبو بكر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وأبو ذر الغفارى . ومن السابقين الي الاسلام خالد بن العاص جاء النبي فقال له الى م تدعو يا محمد فقال (أدعوك الي عبادة الله وحده لا شريك له وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع والاحسان الى والديك وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن وأن لا تقتل

نفسا حرم الله قتلها الا بالحق وأن لاتقرب مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وان توفى الكيل والميزان بالقسط وان تعدل فى قولك ولو كان على ذوى قرباك وان توفى لمن عاهدت) فأسلم وهكذا دخل هؤلاء الاشراف فى الاسلام غير مهددين ولاملجئين ولكن طائعين منصفين مدركين فرق ما كانوا عليه من الضلال وماأتاهم به هذا الدين الحنيف . ولم يدفعهم الى الدخول في الاسلام اذ ذاك لارغبة فى جاه ولاتوقع ثروة ولافقر مدقع فان أكثرهم كانوا أوسع ثروة وأعظم جاها وأقوى عصبية وأنفذ كلمة من ذلك الفرد الذى أطاعوه وتبعوا شرعه واحتملوا الاذى فى تأييده (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعا من خشية الله)

ثم جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة فسخرت منه قريش وكانوا يضحكون منه في مجالسهم وهو مع ذلك لايثنى عزمه ولايرجع عن تسفيه أحلامهم وتقبيح آلهتهم فأضمروا له العداء والبغضاء ثم جاؤا الى أبي طالب عمه وقالوا له ان لك شأنا وشرفا ومنزلة منا وانا والله لانصبر على هـذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا فاما أن تكفه أو ننازله واياك حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا فعظم على أبي طالب فراق قومه ولم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه فقال له ياابن أخي أبق على نفسك ولاتحملنى من الامر مالا أطيقه فظن الرسول أن عمه خاذله فقال والله ياعم لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر مافعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه ثم بكى

وولى وقد صادف النبي على أثر ذلك من أذى قريش ومناوأتهم واعتسافهم ومؤامراتهم ماخلد فى التاريخ . ومن ذلك مارواه البخارى قال (بينما النبي يصلى فى حجر الكعبة اذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقا شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم

ولقد عم الاذى جميع من أسلموا حتى لم يبق أحد الا أصابه منه حظ كبير . ذلك أبو بكر الذى كان فى الجاهلية سيداً شريفا أشتد عليه أذى قريش حتى أجمع رأيه علي الهجرة الى الحبشة لولا أن عاقدله ابن الدغنة علي أن يعبدالله فى داره فيصلى فيها ماشاء ويقرأ ماشاء ولا يؤذى قريشا بالاستعلاء به خشية أن تفتن نساؤهم وأبناؤهم فلما ابتنى أبو بكر مسجداً بجوار داره يتعبد فيه أتى ابن الدغنة أبا بكر فقال قد علمت الذى عاقدت الله عليه فاما أن تقتصر على ذلك واما أن ترجع الىّ ذمتى فانى لا أحب أن تسمع العرب انى أخفرت فى رجل عقدت له فقال أبو بكر فاني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (كما فى البخارى بتصرف)

تفاقم الخطب وأحدقت الفتن بالمسلمين حتى عجزوا عن احتمالها فأشار النبي صلى الله عليه وسلم عليهم بالهجرة الى بلاد الحبشة فهاجر منهم عشرة رجال وخمس نسوة فلما أعيت قريشا الحيل عزموا علي منابذة بنى هاشم وبنى المطلب واخراجهم من مكة والتضييق عليهم حتى يسلموا محمدا صلى الله عليه وسلم للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى

جوف الكعبة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة فهاجر معظمهم

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم من قريش ما رأى جعل يخرج في الاسواق العربية ويعرض نفسه على القبائل ليحموه فكان منهم من يرده رداً جميلا ومنهم من يلقى عليه قولا ثقيلا حتى اذا جاء رؤساء الأوس الى مكة ليحالفوا قريشا على الخزرج جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هل لكم فى خير مما جئتم له أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركوا به شيئا ثم تلا عليهم القرآن ولم يمض الا قليلا حتى آمن به بعضهم وصدقوه فيما جاء به ثم أخذ عدد المسلمين من الأوس والخزرج يزداد قليلا قليلا فأثار ذلك من حنق قريش وسخطهم حتى لقد جعلوا يغلون فى ايذائهم للنبي على ما هو فى كتب السنة الصحيحة. فلما علموا بما حالف الانصار عليه النبي صلى الله عليه وسلم أجمعوا امرهم على ان يقتلوه واتفقوا على ان يأخذوا من كل قبيلة شابا جلداً ويجتمعوا أمام داره فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على محاربة قريش كلهم فألهم الله النبي بجميع مادبرله أعداؤه فخرج هو وصاحبه أبو بكر الى المدينة لينزل فيمن عزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه . هكذا كان مجمل بدء الدعوة الاسلامية . وانى هنا لواثق انه لا يكاد يوجد من المعارضين من يستطيع التبجح فينكر شيأ من ذلك او يدعى ان سيفا اعمل فى خلال تلك السنين فما علىّ الا ان أسرد لك اسباب ما كان بعد ذلك من الغزوات والسرايا مختاراً اشدها وأهمها فى اظهار الدين فأقول :

أباح الله لرسوله محاربة من آذاه من كفار قريش وأخرجوه هو واصحابه من ديارهم فقال (أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله) وقال (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فان انتهوا فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) فلم يبح الله للنبي مقاتلة غير كفار قريش لما ناله منهم فلما تمالأ على المسلمين غيرهم من قبائل العرب أباح الله للنبي أن يقاتل كل معتد عليه فقال (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) وقال (واما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) فانظر الى ما شرعه الله للمسلمين من القتال أتجده يخالف فى شىء ما يسمى فى هذا الزمان بقتال المدافعة عن النفس. كلا. فلقد نهى الله المسلمين عن الاعتداء ولم يبح لهم الا مقاتلة الظالمين البادئين بمقاتلتهم

شرع الله قتال أهل مكة لما اعتدوا علي النبي صلي الله عليه وسلم وهموا بقتله وأخرجوه من دياره هو وأصحابه لاجل اضعاف شوكتهم وفل غرارهم حتى لا يتمكنوا من العودة الى محاولة قضاء مآربهم من النبي فانه كبر عليهم خروجه ووجوده فيمن حالفوه على النصر والتأييد فكانوا يتحينون الفرص للايقاع به والقضاء على دينه وشيعته فلو تركوا بلا مناوشة

لاستفحل أمرهم ولضاق ذرع المسلمين عن مقاومتهم فكان من الحزم وسداد الرأي أن يقعد النبي صلى الله عليه وسلم لهم كل مرصد ويضيق عليهم السبل فكان يرسل السرايا ويخرج بنفسه فى المغازى حتى لا تمر عير لقريش الا صادرها وحرم المشركين مما فيها من الامتعة فكان مرة يصيب منهم وتارة يخطئهم . فمن أكبر الغزوات التي انتصر فيها المسلمون غزوة بدر الكبرى خرج النبي صلى الله عليه وسلم مترصدا أعظم عير لقريش آتية من الشام جمع فيها غالب أموال قريش حتى لم يبق بمكة قرشى ولا قرشية لها مثقال فصاعدا الا بعثت به فى تلك العير

(١) فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول فى رجاله أرسل الى قريش فنفروا سراعا لحماية تجارتهم وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا فالتقي الجمعان وكان ما كان من نصرة المسلمين على ضعفهم وقلة عددهم (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة)

(٢) كان يهود المدينة يضمرون البغضاء للمسلمين ويتشوفون أن يصيبهم من أهل مكة مالاقبل لهم به فلما كانت وقعة بدر الكبرى التي أيد الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام والمسلمين نبذوا ما كانوا عاهدوا عليه الرسول فبدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر فلقد قال رؤساؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم وقد حذرهم عاقبة البغى «لا يغرنك يا محمد مالقيت من قومك فانهم لاعلم لهم بالحرب ولئن لقيتنا لتعلمن من تلاقى» فبنقضهم ميثاقهم وبداءتهم بالعداء سار اليهم النبي صلى الله عليه وسلم وحاصرهم خمس عشرة ليلة فلما آنسوا من أنفسهم الضعف

واستولى على أفئدتهم الرعب سألوا الرسول أن يخلى سبيلهم فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الاموال فقبل منهم ذلك

(٣) عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الذهاب الى مكة لتأدية نسك العمرة فخرج فى ألف وخمسمائة من أصحابه ومعهم الهدى ايذانا بأنه لم يذهب الى مكة محاربا فساروا حتى نزلوا بأقصى الحديبية ثم ان الرسول اختار عثمان بن عفان سفيرا الى قريش ليعلمهم مقصده فذهب عثمان وبلغ ماحمل فقالت قريش (ان محمدا لا يدخلها عنوة أبدا) ثم انهم حبسوه فشاع أن عثمان قتل فقال عليه السلام حينما بلغه ذلك الخبر (لا نبرح حتى نناجزهم الحرب) وبايع أصحابه على القتال فخافت لذلك قريش فأرسلت سهيل بن عمرو فى طلب الصلح فوضعت الحرب أوزارها على ماتراضوا عليه من الشروط التى منها وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنين

(٤) ثم انصرف النبي والمسلمون قافلون الى المدينة فى تلك السنة وعادوا لقضاء عمرتهم في العام التالى ثم عمل النبي صلى الله عليه وسلم بمقتضى شروط الصلح فلم يخفر ذمة ولم ينقض عهداً حتى بدأت قريش بالعدوان

ذلك أن قد دخل فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم قبيلة يقال لها خزاعة كما دخل فى عهد قريش قبيلة أخرى يقال لها بكر وكان بين هاتين القبيلتين اضغان كثيرة وتراث قديمة فاتفق أن رجلا من بكر وقف يتغنى ذات يوم بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل

خزاعى فقام هذا فضربه فأثار ذلك كامن احقاد بكر واستشاطوا غضباً فاستعانوا بقريش على الفتك بقبيلة خزاعة فأمدتهم قريش بالعدة والرجال ثم انقضوا على خزاعة على غرة منهم وقتلوا منهم فارسلت خزاعة الى النبي صلى الله عليه وسلم تخبره بما جرى من قريش وبكر حليفتها

أما قريش فانها استيقظت فرأت انها قد نقضت بفعلتها هذه شرائط عقد الصلح الذى تم بينهم وبين المسلمين فندمت على هذه الفارطة التى ارتكبتها بلا ترو ولا تبصر فأرسلت اذ ذاك أبا سفيان زعيمها الى المدينة ليوثق عرى الصلح ويمد فى أجله فخرج حتى جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وعرض عليه ماجاء به الى المدينة فقال له عليه الصلاة والسلام هل كان من حدث بعد. قال لا . فقال الرسول: فنحن على مدتنا الاولى وصلحنا السابق ولم يزد عن ذلك. ومن المعلوم ان قريشا الآن قد اعتبرت محاربة حسبما تقتضيه شروط الصلح السابق وقد شعر بما أضمره النبي صلى الله عليه وسلم لقريش فتوسل اليه ببعض وجوه العرب وزعمائها فلم يفلح .

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فانه أمر أصحابه أن يتأهبوا للسفر وأخبر أبا بكر بما عزم عليه فقال له أبو بكر أو ليس بينك وبين قريش عهد قال نعم ولكن غدروا ونقضوا ثم استنفر الاعراب الذين حول المدينة وسار النبى صلى الله عليه وسلم فى عشرة آلاف مقاتل الى مكة حتى اذا وصل اليها أمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة ودخل هو من اعلاها ونادى مناديه «الا من دخل داره واغلق بابه فهو آمن

ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » نعم انه أهدر دم جماعة وان تعلقوا باستار الكعبة لانه اعتبرهم كما يقال فى هذا العصر « مجرمين سياسيين »

واعلم انه لم يقاتل فى هذا الفتح الا جيش خالد الوليد ولكن بعد ان تعرضت له قريش ليصدوه عن دخول مكة فقتل منهم أربعة وعشرين رجلا وقتل من جيشه اثنان فكان دخوله مكة عنوة

ثم أخذ النبى عليه الصلاة والسلام يطهر الكعبة مما كان عليها من الاوثان والادناس ثم خطب فى الناس فبين كثيراً من الاحكام ثم ختم خطبته بقوله تعالى (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير) ومن آدابه صلى الله عليه وسلم وشيمه الكريمة ماورد فى كتب السنة الصحيحة من أن رجلا جاء عقب فتح مكة ليبايع النبي عليه الصلاة والسلام فجاء وهو يرتعد خوفا فقال له الرسول « هون عليك فانى لست بملك انما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد »

(٥) على أثر هذا الفتح المبين وتدمير عصابة الوثنيين أخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجا الا بعض قبائل أدركتها حمية الجاهلية الاولى فلقد اجتمعت أشراف هوازن وثقيف وقالوا قد فرغ محمد (صلى الله عليه وسلم) من قتال قومه ولا ناهية له عنا فلنغزه قبل أن يغزونا أما النبى صلى الله عليه وسلم فانه لما بلغه خبر استعدادهم لحربه أجمع رأيه على المسير اليهم فخرج فى اثنى عشر ألفا حتى وصل الى العدو فالتحم

الجمعان وذلك يوم حنين أعجب المسلمين فيه كثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً وضاقت عليهم الارض بما رحبت حتى ولوا مدبرين لولا أن الله أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأيدهم بروح منه فلم ينته القتال حتى جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هي العليا والله عزيز حكيم

هذه هى جلى الغزوات وأقواها فى تأييد الاسلام واعلاء كلمته وتقوية سلطانه . فهل رأيت فى جميع ماقصصته عليك وانه لحق أن النبي بدأ أحداً بعدوان . كيف وهذا كتاب الله يقول (لا عدوان الا على الظالمين)

ارجع الي كتب السِّيَر وجرد نفسك من شوائب التحيز فهل تجدن مغمز ابرة للشك فيما قصصته عليك ؟ كلا

وخلاصة القول ان البصير بالتاريخ يشهد معنا ان المصطفى عليه والسلام لم يسل فى حياته سيفا لارغام أحد من الناس على الدخول فى دينه ولكن الهدى هدى الله يهدي به من يشاء

ما كان للنبى والمؤمنين أن يدعوا الى الله ودينه سالكين طرق العسف والارهاب وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى فى الدعوة كما قال (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) وقال تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن)

انظر الى ابداع كتاب الله فى الرد على أهل الكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح مع اشتماله على أحسن آداب المحاجة حيث يقول (ما كان لبشر

أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)

٥

وجه كون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم

عامة لجميع المكلفين

اعتاد الناس أن يقيسوا أحكام الله السماوية بقوانين البشر الوضعية فتراهم يتشدقون بأن الاحكام يجب أن تكون مناسبة للازمان مختلفة باختلاف أهلها فيراعى فى القوانين والشرائع الاماكن وطبقات العالم ودرجات ارتقائها فى التحضر والفضل والتهذيب ونحوها من الصفات التى تتفاضل فيها الامم وتتفاوت طبقاتها باعتبارها ثم كأنك بهم وقد طفرت عقولهم فحكموا بأن شرائع الاسلام وسننه جاء بها نبى عربى لم يعرف من أحوال الامم الاخرى الا قليلا جداً كما انه لم يعلم ماسيتوالى بعده من الامم المختلفة والاحوال المتباينة والعصور التى تكاد تكون متباينة فى مقتضياتها ومطالبها وأحكامها

فكأنى بأمثال أولئك القوم قد أقاموا على أنفسهم الحجة بأنهم لايفقهون مايتلى عليهم من كتاب الله تعالى. يسمعون القرآن وانما مثله فيهم كمثل الذى ينعق بما لايسمع الادعاء ونداء ويرون آياته بأعينهم وانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور

فما بسطت لك هنا من أمر أولئك القوم أريد ان آتيك هنا بوجه كون الدين الاسلامي دين الفطرة البشرية التى فطر الناس عليها فى كل

زمان ومكان صالحاً لكل أمة وكل جيل مصلحاً لكل من استمسك بسببه المتين وعمل بكتابه المبين

اعلم ان دين الله فى كل الامم واحد لا تختلف أصوله باختلاف الامم وأحوالها وأزمانها وأمكنتها وانما الذى يختلف باختلاف ذلك هى الاحكام الفرعية يشير الى ذلك قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) وقوله تعالى (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده) الآية

جاء الرسول عليه الصلاة والسلام لتقرير الحق والاعتراف به وتذكير الناس أن يتمسكوا به فما كان له أن يبطل حقاً أو ينكر صالحا أو يجحد نبيا أو يستقبح حسنا ولكنه جاء مؤذنا فينا بأنه قد آمن بما أنزل الله من كتاب وانه آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله غير مفرق بين أحد من رسله كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام بأن الله أوحى اليه ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وبأن من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً فلم يأت النبي صلى الله عليه وسلم ببدع من الشرائع ولكن بما قرره الله من الحق وأوحي به الى أنبيائه من قبل كما قال عز من قائل (وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدّقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) على اننا نعلم ماتقرر فى الاسلام من ان شَرع من قبلنا شَرع لنا مالم يرد ناسخ . فترى من جميع ماتقدم ان الاسلام لم يخالف مقتضى الفطرة السليمة فى اعتبار ماسبق من الشرائع والاخذ

بما تقرر من النواميس العادلة سواء ورد بها دين ابراهيم أو دين عيسى بن مريم أوغيرهما . نعم ان الاسلام نسخ بعض مافرض الله على الماضين من الكلف الشاقة التى جلبها عليهم عنادهم وظلمهم كما قال تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل) فانهم لم يزالوا كذلك حتى جاء المصطفى عليه الصلاة والسلام حريصا على المؤمنين رءوفا بهم رحيما لهم فأباح الطيبات من الرزق ولم يكلف نفسا الا وسعها فكان دينه بذلك أكثر الاديان ملاءمة للطباع والعادات والقوى البشرية على اختلافها ولذا كان عليه السلام خاتم النبيين

ربما قيل كيف ذلك مع أن أكثر الاحكام النظامية والنواميس التعاملية قد وضعها بعد النبي الفقهاء والخلفاء والامراء فلم يحط الاسلام فى بدء نشأته بكل مايلزم البشر من القوانين والاحكام فنقول ان جميع ماوضعه الفقهاء والخلفاء والامراء من الاحكام انما بنوه على ماأباح لهم الشرع الشريف من الاجتهاد والقياس كما قدروه واعتبروه بالاحكام العامة التى قررها لهم الشرع على ماسنأتى على تفصيله قريبا فكل ماجاء مبينا على قواعد الدين فهو دين سواء نص عليه الشارع نفسه أو استنبطه أهل الفكر والنظر الصحيح وهذا هو وجه كون الدين الاسلامي دين الابد وختام الاديان .ولنأت لك الآن بشيء من قواعد الاسلام لترى منها وجه ماقلناه لك آنفا فتدبره فان للدين كما سترى قواعد أصلية ثابتة تقدر بها الاحكام حسبما تقتضيه الاحوال المختلفة فى الازمان المختلفة

بين الامم المختلفة

(١) الاصل الاول الاجتهاد وأعني به أن تستنبط الاحكام من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة حسبما تصل اليه الافهام السليمة فكل من يعرف لغة القرآن لاينبغى له بحالٍ ما أن يقلد غيره تقليداً متى قدر على فهمه وفهم الكتب الصحاح فى السنة فلم ينسد ولن ينسد باب الاجتهاد برغم أنف من أرادوا أن يحجروا على العقول البشرية ويقيموا عليها أوصياء من الاولين حتى تسير كما ساروا وتقول بما قالوا فان السلف الصالح رضى الله عنه ما كان مقلداً ولكن تصدى لكتاب الله فعمل بما وصل اليه ادراكه وبلغه جهده ولو كان بعض ذلك خطأ فى الواقع فان الله لم يحرم من الاجر أي مجتهد. نعم انه جعل لمن اجتهد فأخطأ أجراً واحداً ولمن اجتهد فاصاب أجرين. ان أمر انسداد باب الاجتهاد أمر ابتدع بعد انقراض الصدر الاول منه لاسباب: منها انتشار العجمة فى المسلمين وعدم استطاعة كثير منهم وكانوا لايحسنون العربية ان يفهموا القرآن على وجهه ومن الاسباب أيضا فيما أظن جهل كثير ممن قالوا بعدم جواز الاجتهاد للقرآن الكريم وعدم معرفتهم أحكامه ولغته والا فكيف عموا عن قوله تعالى (ولقد يسرنا — سهلنا — القرآن للذكر — للتذكر — فهل من مدكر) أى فهل من طالب علم منه ومتفهم له فيعان عليه أم كيف غفلوا عما قبح الله به الاولياء من المشركين وندد عليهم اذ قلدوا اباءهم وقصروا أنفسهم علي محاكاتهم فيما اعتقدوا وفيما عملوا حيث قال (واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا أولو كان اباؤهم

لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) واذا شئت ان تستقصى ماورد عن الله من تسفيه أحلام المقلدين والتشهير بهم فعليك بقراءة القرآن الكريم فستجد منه مافيه مقنع ومايتذكر الا أولو الالباب

(٢) الاصل الثانى القصد فى الاعمال واقامة مالا يشق على النفوس من التكاليف فلقد طالما نص القرآن الكريم على ان الله لا يكلف نفساً الا وسعها فكل ماليس فى وسع الانسان ان يقوم به فلا تكليف فيه. والمراد بالوسع أن يكون العمل بحيث لا يجهد فاعله ولا يوقعه فى العناء والتعب فان هذا هو مايفهم من التعبير بكلمة وسع التى معناها السعة وعدم الضيق ولقد نهانا الله تعالى عن الغلو فى الدين فقدورد فى البخارى «لن يشادّ الدين أحد الا غلبه » وورد فيه أيضاً ان النبي صلى الله عليه وسلم قال (سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئاً من الدجلة والقصد) ومن هنا لا ينبغى لمسلم أن يتغالى فى دينه وأن يتباعد عن المباحات وأن يحمل نفسه فوق طاقتها فان هذا ليس من الدين فى شئ واعلم أن المتغالين فى دينهم أقرب الناس الي العجز عن القيام به واحتمال تكاليفه ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (أحب الاعمال الى الله أدومها وان قلّ) وقال (ان المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)وقال تعالى (ماجعل عليكم فى الدين من حرج) وقال أيضاً (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ومما يناسب هذا الموضوع نازلة كانت موضوع بحث أهل العلم ومنتحليه فى مصر وذلك لبس البرطلة فلقد هاج وماج بعض مدعى العلم علي من قال بحل لبسها للمسلم فسلهم بأبيك كيف لهم أن يتقولوا علي الله وينسبوا

ذلك لدينه . ان البرطلة ليست لباساً دينياً وانما هى لباس أمم مختلفة الملل والنحل فمنهم النصرانى ومنهم المجوسى ومنهم اليهودي ومنهم العربى المسلم يسكن بعض الجهات الحارة من صحراء أفريقية وغيرها نعم انها تختلف أشكالها وصورها ولكنها ذات اسم واحد تندرج تحت نوع واحد

فان كان شبهة أولئك القوم انها لم تكن معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لسلفه الصالح قلنا ان هـذا لا يقتضى التحريم فهل رأى النبى صلى الله عليه وسلم العمائم التى فوق رؤسنا أو القفاطين التى تتدلى أكمامها أو الجبب (الفرجيات) التى يمكن أن يتخذ منكم أحدها لباس الجسم بتمامه

فليفقه أولئك القوم انهم يقفون ماليس لهم به علم والله تعالي يقول (ولا تقف ماليس لك به علم) . ان الطيالسة التى استعملها العلماء في خلافة العباسيين انما حاكوا فيها رهبان اليهود وأحبارهم كما ان هذه الجبب الواسعة المستعملة فى مصر انما حاكوا فيها علماء وبطارقة بعض المذاهب النصرانية

واعلم ان من موضوع هذا الباب تحرج كثير من شبيبة المسلمين أن يؤدوا مافرضه الله عليهم من الصلاة حتى اذا سألتهم فى ذلك قالوا اننا لا يمكننا التحرز من النجس لاسيما قطرات البول وكثيراً مايقضى الانسان حاجته فلا يجد من الماء مايتطهر به . ومنهم من يقول ان من المشقة أن أخلع نعلىّ وألبسهما عند كل صلاة ولا يمكننى أن أصلى بهما حسبما يفتينا علماء المسلمين لانه يغلب على الظن عدم سلامتهما من النجاسة التي تكون عادة فى الطرقات . فترى أولئك الفتية يتركون الفريضة التى

هى سمة المسلم ومذكرته بالحق تعالى وناهيته عن الفحشاء والمنكر انصياعا لما أفتاهم به أولئك الجهلة المتغالون والدعاة المعطلون

فمن لي أن يرى أحداث المسلمين مارواه البيهقى مرفوعا «اذا جاء أحدكم المسجد فليقلب نعليه فلينظر أفيهما خبَث فان وجد فيهما خبثاً فليمسحهما بالارض ثم ليصل فيهما » ومارواه البيهقى أيضا عن أم سلمة «انها سئلت عن المرأة تطيل ذيلها وتمشى فى المكان القذر فقالت أم سلمة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يطهره مابعده » وفى رواية له عن أبى هريرة رضى الله عنه «قلنا يارسول الله انا نريد المسجد فنطأ الطريق النجسة فقال النبى عليه الصلاة والسلام (الطرق يطهر بعضها بعضا» وفى حديث البيهقي مرفوعا « اذا وطئ أحدكم بنعليه فى الاذى فان التراب له طهور»

وقد رأى المالكية أن المتعمد فى مذهبهم ان ازالة النجاسة سنة أعنى انها لاتبطل الصلاة بوجودها وان كانت مكروهة معها . فلم لايصلى ذلك المسلم فى نعليه ؟ ولم لايصلى وفى سراويله قطرات البول ولم يسهل عليه التحرز منها «ولم لايصلى المسلم فى بلاد لم يستطع ان يستنجى فيها » أيظنون ان الله يريد بهم العسر مع ان الله يقول فى قرآنه «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر »

(٣) الاصل الثالث من أصول الاسلام انه لاضرر ولاضرار :

فلا يجوز لمسلم ان يفعل مافيه ضرر لجسمه أو عرضه أوماله كما لايجوز له أن يضار غيره فيدخل فى ذلك تكليف الجسم بما لا يطيق وشرب المنكر والمقامرة وايذاء الغير بأي نوع من ضروب الاذى حسبما تعارفه القوم

الذين يعيش فيهم كقتل النفس والسرقة والرشوة والخداع والتمويه والتدليس وشهادة الزور وهلم جرا

لعلك اطلعت على ماقرره الفقهاء من اباحة التخلف عن الجمعة لاسباب كثيرة. منها أن يكون بالانسان بخر أو رائحة ثوم أو بصل أو به مرض معد كالجذام والبرص ونحوهما من كل مايضر أو تشمئز من نفوس المصلين ولايخفى ان هذا الاصل ينبنى عليه كثير من الاحكام الفرعية والنوازل اليومية فى كل عصر

(٤) الاصل الرابع سد الذرائع واعطاء الوسائل أحكام المقاصد والغايات فكل ماأفضى الى مباح فهو مباح وكل ماوصل بك الى مكروه فهو مكروه وكل ماأوقعك فى محرم فهو محرم فكلما أردت أن تحكم على وسيلة بحكم فقدرها بمعيار غايتها. ولنضرب لك مثلا ماجاء به الشرع من اباحة تعدد الزوجات فان هذه الاباحة قد قيدها الشرع بقيود منها العدل ومنها أن لايفضي التزوج الى ضرر أو محرم أو فساد فاذا قسنا ذلك بما يحصل عادة على أثر التعدد من الشقاق وافساد ذات البين واغفال الرجل أمر أولاد احدى الزوجات ارضاء لغيرها أو قسوة عليهم وايذائه لهم فاذا قدرنا تلك الوسيلة وهى تعدد الزوجات بما تفضى اليه من المضار يمكن الحكم بأنه لايباح للرجل تزوج أكثر من واحدة الالمن أمكنه أن يقوم بجميع ماشرط عليه من العدل وعدم المضارة والفساد

(واعلم) ان من أهم أصول الدين الحنيف اعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به فاذا غلب على الظن ان العمل مفض الى محرم أومكروه فانه

يعطى حكم غايته فيحرم أو يكره فلا يعترض علينا هنا بأن امر المضارة مع تعدد الزوجات ليس بالأمر المحقق حتى ينبني عليه تحريم ذلك علي الرجال فاننا على تسليم انه غير محقق جدلا لا يسعنا ان ننكر انه أمر غالب على الظن حتى يوشك أن يكون يقينا

(٥) الاصل الخامس من أصول الاسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض . وأولى بى هنا ان أقتطف ماجاء لاستاذنا الحكيم الشيخ محمد عبده فى مقالات الاسلام والنصرانية اذ قال مانصه

«اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ننظر اليه على انه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما يدل عليه العقل وبقى فى النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الامر الى الله فى فهمه . والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة علي قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ماأثبته العقل وبهذا الاصل الذى قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدى العقل كل سبيل وأزيل من امامه جميع العقبات واتسع له المجال الي غير حد فماذا عسى يبلغ اليه نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ماهو أبعد من هذا وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم اذا لم يسعهم هذا الفضاء ان لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء بأجرامها وابعادها» اه

ولا يخفى ان تقرير هـذا الاصل في الاسـلام يدلك دلالة واضحة على ان الدين المحمدي لم يلزم العقل أن يخالف مايقتضيه نظره

وبحثه بل انه فوق ذلك قدمه فى العمل والاعتقاد على ظاهر المنقول

(اباحة التجمل بانواع الزينة)

قال الاستاذ الامام فى كتاب الاسلام والنصرانية مانصه

« أباح الاسلام لاهله التجمل بانواع الزينة والتوسع فى التمتع بالمشتهيات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية والوقوف عند الحدود الشرعية والمحافظة على صفات الرجولية . جاء فى الكتاب العزيز (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا انه لايحب المسرفين قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين امنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون قل انما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون) ثم عد الله النعم والجمال والزينة من نعمه علينا التى يذكرنا بها فضله ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره كما قال (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤف رحيم والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون) ثم قال (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) اه

(٧) الاصل السابع وجوب امتثال ماقاله النبي صلى الله عليه وسلم

شرعا دون ماذكره من معايش الدنيا علي سبيل الرأى

(اعلم) انه قدتقدم لنابيان أن وظيفة الرسل ارشاد العالم الى طرق النجاح والاستقامة واقامة العدل فيهم وتربيتهم على الاخلاق الفاضلة والشيم الكريمة وبينا أيضا أن الاسلام يقدم العمل بمقتضى العقل على ظاهر الشرع عند التعارض وقد علمنا النبي صلي الله عليه وسلم ذلك وبينه باجلى عبارة وأوضحها كما روته الكتب الصحيحة فلنأتك هنا بشيء مما ورد فيها

(روى) مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم علي رءوس النخل فقال مايصنع هؤلاء فقالوا يلقحون يجعلون الذكر فى الانثى فتلقح فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم ماأظن يغنى ذلك شيئاً قالوا فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فانى انما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فانى لن أكذب على الله عز وجل

(وروى) مسلم أيضاً عن رافع بن خديج قال قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يأبرون النخل فقال ماتصنعون قالوا كنا نصنعه قال لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً فتركوه فنقصت قال فذكروا ذلك له فقال انما أنا بشر اذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به واذا أمرتكم بشيء من رأيى فانما أنا بشر

(وروى) أيضاً عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقوم يلقحون فقال لو لم تفعلوا لصلح قال فخرج شيصاً فمر بهم فقال مالنخلكم قالوا

قلت كذا وكذا قال أنتم أعلم بأمور دنياكم

كأني بك ترى ماحكم به النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه وهو سيد المنصفين صرح لك الرسول بأنه انما هو بشر وان أهل كل حرفة أو صناعة أدرى بمسائلها وبخفاياها من غيرهم وان عصمة الرسل انما تجب فيما اذا بلغوا عن الله شيئاً من شرائعه ونواميسه. ومن هنا نعلم انه لايجب الاخذ بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أمور الدنيا وأحوالها وحرفها وطبها وصنائعها لان هذا ليس مما يوحي به اليه من الشرائع

(٨) الاصل الثامن المساواة بين المسلمين فى الاحكام وكذا بينهم وبين جميع من لهم ذمة وعهد فان لهم مالهم وعليهم ماعليهم فلا يفضل أحد أحداً فى اعتبار الشرع الا بالتقوى والعمل الصالح (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) فقد جعل الله الغني والفقير والمأمور والامير والعزيز والحقير سواء فى أحكامه سواء فى ذلك الاحكام الدنيوية والاخروية واعتبر ذلك بصيغ العموم التى تراها فى غير موضع من القرآن الكريم نحو قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ومن الغريب أن الفقهاء الذين يدعون فهم كلام الله ويظهرون للعالم بسبحهم وسواد موضع السجود من جباههم طالما حابوا الامراء وتأولوا كتاب الله بما يوافق اغراضهم حرصا منهم على استرضاء من لايضرون ولا ينفعون راضين بما سخط الله عليهم اذ فرقوا دينهم وكانوا شيعاً فشحنوا كتبهم بما تضارب من الاقوال وخالفوا أمر

القرآن كما فى قوله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات) وقال تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ) وقال تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) واذا أردت ان تأتى على ماورد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الاتفاق وعدم الفشل والاختلاف فعليك بكتب السنة الصحيحة

(٩) الاصل التاسع أن لا تزر وازرة وزر أخرى ففى سورة الطور (كل امرئ بما كسب رهين) وفى سورة المدثر (كل نفس بما كسبت رهينة) وقال تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وفى سورة النجم (أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى)

ولا يقال ان من أحكام الشريعة مالا يقتصر على الجانى كما في دية القتيل فانها على عاقلة القاتل وكما يؤخذ من قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لانا نقول ان أمر الدية انما ألزمت بها العاقلة فى الشعوب التى لها عصبية قائمة ووحدة وعهد بحيث انهم يكونون يداً واحدة علي من سواهم فاذا أصاب أحدهم شئ تعاهد الباقى على الاخذ بثاره او المطالبة بديته كما هو الشأن بين البدو وكثير من العرب حتى الآن ولذلك تجد الفقهاء ينصون على انه لا عاقلة فى الامم التى لا تتضامن قبائلها كالفرس والفرنجة والمصريين وغيرهم من الامم التي لا اثر فيها لتلك اللحمة التى تجعل الحى او البطن او القبيلة كأنها رجل واحد فأخذهم الشرع كما اخذ لهم وانتقم منهم كما انتقم لهم وهذا من

الوجوه التى تبين لك كيف جاء الاسلام مطابقا للاحوال البشرية ملائما لها على اختلافها

(١٠) الاصل العاشر ان جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الامام او من ينصبه من القضاة للفصل بين الناس طبقا لما يقتضيه العرف العام كما ان من أصوله جواز التحكيم

واعلم ان الشرع الشريف قد حدد بعض العقوبات لجزاء القتل والسرقة ونحوهما وهى قليلة جدا بالنسبة لما ترك الشارع امر تحديده الى الحكام ونوابهم فقد أجمع الائمة على ان التعزير مشروع فى كل جناية لاحد فيها ولا كفارة وجوز الامام مالك للامام الحاكم ان يبلغ بالتعزير أعلى درجات الحدود المقدرة

أما التحكيم فقد أجازه الشارع فى الاصول المالية وذلك ان يحكم رجلان بينهما خلاف رجلا من أهل النظر والرأي للفصل فيما شجر بينهما وقد ذهب بعضهم الى اعتبار قول الحكم أمرا مقضيا لا يتوقف في تقرره وثبوته على أن يقرره قاض شرعى ولا أمير ولا حاكم

(١١) الاصل الحادي عشر تقدير كثير من الاحكام بما تعورف بين الناس . ولا يخفى ان هذا الأصل قد أوسع دائرة الاحكام الشرعية حتى وسعت تقريبا جميع النوازل على تغاير اشكالها وتباين احوال اربابها فمن ذلك أمر النفقات الزوجية فانه يراعى في تقديرها عند الحكم بتقريرها حالة الزوجين فرب نفقة تلائم زوجة على انها لا تلائم اخري وقد كثر التعبير بكلمة «المعروف» و «العرف» فى القرآن العزيز وعلق عليهما

تقرير كثير من الاحكام ومن البديهى أنه لا معنى للمعروف والعرف الا ما كان متعارفا مألوفاً غير مستنكر كما أن المنكر هو مالا يجرى به عرف وألفة فمن الآيات المحتوية عليها قوله تعالى (طاعة وقول معروف) وقوله (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) وقوله (الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس) وقوله (وعاشروهن بالمعروف) وقوله تعالى (فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) وقوله (وأتمروا بينكم بمعروف) وقوله (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) وقوله (وان جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) وقوله فى شأن الاوصياء (ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) فترى فى هذه الآيات وكثيراً غيرها أن الله تعالى قد فوض أمر تقدير كثير من المعاملات الى ماجرى به العرف والعادة من غير تقييد بأهل مكة أو أهل المدينة أو غيرهما بل أطلق الامر اطلاقا ولاريب أن العرف يختلف باختلاف أهله وطبقاتهم وما اعتادوه بينهم حسبما يقتضيه الزمان والمكان ولذا كان من القصور تعرض بعض من الفقهاء الى تحديد مثل متعة المطلقة أو نفقة الزوجة وتقدير كثير من الاحكام بما جرى عليه عرف أهل المدينة المنورة محتجين بعملهم وأنهم أعلم الناس بما مات عنه النبي صلى الله عليه وسلم كما ان من جمود القريحة وقصور النظر تفسير هذه الكلمات بغير مايتبادر منها فان هذا تخريج للكتاب العربى المبين على غير ما أريد منه ومما يناسب هذا المقام أن القرآن قد أتى بالفاظ أخرى عامة لتكون صالحة للحمل على ماناسبها

من النوازل والاحوال فمن ذلك كلمات «الصالحين» و«الصالحات» و«صالحا» فى كثير من الآيات فان المراد من مادة الصلاح هنا ماليس سوءاً كما يؤخذ من قوله تعالى (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) فان هذه الآية ناطقة بأن كل عمل سيئ فهو غير صالح وان كل مسئ فهو غير صالح وانه لاصلاح فى سوء فيدخل فى ذلك الملك الجائر والحاكم الذى أغفل أمر دولته حتى تمكن الضعف منها وجرى الفساد فى عروقها وتمشى الخلل فى أطرافها حتى أصبحت لاتزداد الا نقصا ولاتعظم الا فساداً فلاجرم أن مثل هذا الحاكم لاشائبة صلاح فيه ولو قطع الليل تسبيحا وقرآنا. ومن هنا فسر استاذنا قوله تعالى (ان الارض يرثها عبادي الصالحون) بأن المراد الصالحون لعمارتها بأن امتثلوا أمر الله فأعدوا لانفسهم مااستطاعوا من القوة وأحسنوا الى أنفسهم فكاتفوا الامم فى الاخذ بوسائل القوة والمجد فلم يلتمسوا المسببات الا من أسبابها ولم يأتوا البيوت الا من أبوابها

ومما ينخرط فى هذا الباب خطأ كثير من المسلمين في فهم التوكل الذى حض عليه القرآن غير مرة اذ قالوا ان التوكل هو تفويض الامر الى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الاسباب المألوفة ثم ان منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلغة من العيش الخشن ولم يستزد حتى مات. ومنهم من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق فظن ان من يذكر اسم الوهاب كذا كذا مرة وهبه الله من المال مايزيد عن حاجاته ومن قرأ (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) كفاه الله مؤنة السعى لطلب الرزق من معاهده العادية

ولقد كثر هؤلاء فى المسلمين فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم الهمم وأزال الله عنهم كثيراً من النعم وان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون

نددت الامم الغربية وكثير من الشرقيين بالاسلام والمسلمين لما نزل بهم من الضعف وانحلال العقدة والفشل وزعموا ان منشأ ذلك هو أصول الدين الاسلامى محتجين بأعمال أولئك الطوائف من المسلمين وبما كذبوا على الله فى تأويل آياته الكريمة نحو (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) ونحو (اني توكلت على الله ربى وربكم) ونحو (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ونحو ماورد فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا»

انني لا يسعني هنا أن أفند جميع ماقيل فى هذا المقام لضيقه ولكن حسبي أن أنبهك الى أن الاستدلال على فساد هذا الدين بما أصاب أهله حجة داحضة وبرهان واهن فان نظرة قليلة فيما مضى من تاريخ المسلمين يوم كانوا متوكلين على الله تعالي تلجم هؤلاء المتقولين على الاسلام وتلزمهم الحجة بأن ماطرأ على المسلمين بعد لم يصبهم الا بعد أن تركوا التوكل علي الله فلم يعملوا بما أرشدهم اليه من وجوب الاخذ بالاسباب العادية فانه سبحانه وتعالى خلق الاسباب والمسببات وخلق مابينهما من لحمة السببية فالتماس تلك الاسباب لاينافى التوكل في شئ بل انه نفس التوكل وماتفسير أولئك الناس التوكل بالتفويض المطلق والتقاعد عن الكسب والتحصيل لما أفضى بهم الى الاضمحلال فانما منشؤه الجهل بلغة

القرآن الكريم

ذلك الرسول وهو سيد المتوكلين يرشدنا بقرآنه وبجميع أعماله الى أن لكل شئ سبباً لا يمكن الحصول عليه الا باتخاذ ذلك السبب أو ماسمعت قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم) وقوله (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) ونحو (وماأصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) الي غير ذلك من الآيات

على انك لو تأملت قليلا فى قوله صلى الله عليه وسلم : لرزقكم كما يرزق الطير . الحديث لتجلى لك الامر واضحاً لا لبس فيه فان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقل — لرزقكم كما يرزق الطير تمكث فى أوكارها والله يرسل اليها أغذيتها — بل قال تغدو خماصا وتروح بطانا

وفى صحيح البخارى عن على رضى الله تعالى عنه قال كنا جلوسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عود ينكت به الارض وقال مامنكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة فقال رجل من القوم ألا نتكل على كتابنا وندع العمل يارسول الله قال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له ثم قرأ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى

على ان الله سبحانه وتعالى بين لنا ضرورة علاقة المسببات بأسبابها صراحة وانها من الامور الفطرية التى فطرت الممكنات عليها فقال فى الكتاب العزيز

(ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) ومن ذلك أيضا قوله تعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا (أى أكثرنا)مترفيها ففسقوا

فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) فليتق الله المسلمون فى دينهم وليتباعدوا به عن النقائص التي شوهوه بها وعرضوه بسببها الى طعن الطاعنين وغلو الآفكين

والخلاصة ان الدين الاسلامي لما احتوى عليه من تلك القواعد الكلية والاصول العامة وأشباهها جاء صالحا لان يبتغى بواسطته كل خير فى كل زمان ومكان. ومن هنا يتضح لك جليا وجه كون الرسول عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين وان شرعه خاتم الشرائع الالهية كما انه لم يخالف في شئ من أصوله وقواعده سنن الله الفطرية التى فطر العالم عليها ولذلك لاحرج علينا فى تسميته « دين الفطرة » وبعد فاعلم أن هناك بعض أحكام جاء بها الشرع فكانت مطعن الجاهلين من الامم قصار النظر فرأينا أن نأتى عليها هنا تتميما للغرض الذي وضعنا له هذه العجالة الا اننا نريد قبل ذلك ان نأتيك بما ورد فى القرآن الكريم من صفات المؤمنين ومايجب ان يكونوا عليه وأكل اليك بعد ذلك الحكم فى اعتبار مؤمني هذا الزمان والله يوفقك الى سبيل الرشاد

(١) قال تعالى فى سورة المائدة خطابا للمؤمنين (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله) أى لا يحملنكم بعض قوم صدوكم عن الدخول فى المسجد الحرام على أن تعتدوا عليهم بل يجب عليكم العدل كما يجب عليكم أن تتعاونوا على الاحسان واتقاء مايسخط الله من مخالفة أوامره وفي معنى ذلك قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على

ان لاتعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى) فان الله يأمرنا هنا أن لانطيع ماتكنه صدورنا من بغض أحد على الاعتداء عليه بل يجب أن يوفى كل ذى حق حقه وأن تقدر المعاملة بعيار العدل فانه أقرب للتقوى

(٢) وجاء فى سورة النور (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون) نزلت هذه الآية فى قوم ادعوا أنهم مؤمنون مذعنون لقضاء الله وأحكامه حتى اذا دعوا الى شريعته لتفصل بينهم ألقى الشيطان في ضمائرهم انهم ربما ظلموا فأخذتهم العزة بالاثم فأعرضوا عن أحكام الله وهم ظالمون ولكن اذا كان لهم الحق جاؤا الى الحاكم سراعاً مذعنين وقد بين الله تعالى هنا ان تلك ليست من صفات المؤمنين فى شئ وما كان للمؤمنين الا أن يسمعوا ويطيعوا وينصاعوا الى قضاء الله وأحكامه سواء كانوا ظالمين أو مظلومين

(٣) وجاء فى افتتاح سورة المؤمنون (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون) — الى أن قال — (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون) فليت شعرى كيف يكون

لمؤمني هذا الزمان أن يتبجحوا بأنهم فى اعتبار الشرع مؤمنون مع ان الله تعالى لم يصف المؤمنين بأنهم الذين عن صلاتهم لاهون والذين هم على اللغو مقبلون والذين هم للزكاة مانعون والذين هم لشهواتهم مرضون والذين هم لاماناتهم وعهدهم خائنون

(٤) وجاء في سورة الانفال (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) الى أن قال (أولئك هم المؤمنون حقا)

(٥) وفى سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) الى أن قال (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) فانظر كيف وصف المؤمنين بما وصف وانظر الى استعمال الحصر هنا فى قوله (انما) ثم تأكيده ذلك بقوله (أولئك هم الصادقون)

(٦) وجاء فى سورة الممتحنة (ياأيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لايشركن بالله شيئا ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهن ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولايعصينك فى معروف فبايعهن) يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن ليس الايمان مجرد النطق بالشهادة والمبايعة على أن محمداً رسول الله فان هذا لايكفى ولقد بيّن الله فى هذه الآية البيعة التى يكون بها المؤمن مؤمناً فتدبرها حتى تعلم مبلغ ايمان الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . فبأبيك أيها المؤمن أتجد

فيما وصف الله به المؤمنين اتخاذ المسابح واطالة اللحى واختضاب الشعر وتحديب الظهر وملازمة الزوايا ؟ ألا ان الويل كل الويل لمن حرفوا الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به

الخلاصة : أن من آثار الايمان القلبي الصادق اقامة ماوقع الايمان به وملازمة حدوده ومخالفة وساوس الصدور فمتى رأيت من ينقاد الى شيطانه ويتكل على غير ربه ويحارب شريعته فاعلم أنه غير مؤمن أومارأيت ماقاله تعالى فى قرآنه الكريم (انه — أى الشيطان — ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) فكل من وجدت للشيطان سبيلا عليه فاعلم أنه غير مؤمن أفيحسب أولئك الضالون انهم على شئ . وقدجاء فى البخارى عن سفيان بن عيينة قال مافى القرآن أشدعلىّ من قوله تعالى (ياأهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والانجيل وماأنزل اليكم من ربكم) — أى القرآن — ومعنى اقامة هذه الكتب امتثال جميع مافيها والاتيان به على وجهه فان جاء العمل دون ذلك فانه لايسمي اقامة لماحوته تلك الكتب الشريفة من الاحكام فكيف لاحد بعد ذلك أن يدعى أنه على شئ من الايمان بالله وكتبه ورسله حتى يمتثل مافيها

ومن هنا يتضح ان الايمان الصادق يستدعى الانقياد والعمل وهذا والله أعلم سر مارواه البخارى في صحيحه من قوله عليه الصلاة والسلام « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولايسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »

قال القسطلانى — الايمان هو التصديق بالقلب والاعتراف باللسان

وتقرره الاعمال الصالحة واجتناب المناهى فاذا زنى أو شرب الخمر أو سرق ذهب نوره وبقى فى الظلمة فان تاب رجع اليه — اه وأمثال ذلك في الكتاب الكريم والسنة كثير ولكنها لاتعمي الابصار

هذا والمستقرئ لعبارات القرآن الكريم قلما يجد فعلا أو وصفاً مشتقا من الايمان الا وهو مشفوع بعمل الصالحات فمن ذلك قوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقوله (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً) وهلم جرا. يريد الله بذلك وهو أعلم أن يوقظ العقول الى أن مجرد معنى الايمان فى اللغة أى الاعتقاد لايكفي فى الحاق صاحبه بفئة المؤمنين حتي يقرن اعتقاده بصالح الاعمال. واعلم ان الله تعالى قد ضمن الامن والهداية لمن لم يشب ايمانه بظلم ولاجور فقال (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون) ومن هنا نعلم ان الايمان لاينجى صاحبه من النوازل والمصائب حتى يقرن كما قلنا بالعمل الصالح. ولنا من نوازل هذا الزمان أصدق برهان وأفصح ترجمان فليقصر أولئك الاخسرون أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً

٦

الرق فى الاسلام ومطابقته لمقتضى الفطرة

تمهيد — كانت القوانين فى الازمان السالفة غالبا من الاوضاع البشرية فكان يسن الفرد أو الافراد ماشاؤا من النواميس التى لم يراعوا فيها عدلا ولا نصفة ولا مساواة بين أفراد الانسان فيما لهم وما عليهم

كان محض ارادة القوى وسلطانه هو القانون والسنن التى يسار علي

مقتضاها فكان عدم تساوى الافراد فى القوى الجسمية والعقلية الذى اقتضته سنة الكائنات الحيوية هو منشأ تسخير القوى للضعيف وغلبته عليه حتى أفضى ذلك بعد الى وجود ناموس عادى اقتضى أن يكون ثمة مالك ومملوك وقاهر ومقهور .

ان استخدام شخص لآخر واستمتاعه بقواه الجسمية بلا أجر هو ولاريب أساس الاسترقاق الذى نشأ مع نشأة الانسان فان من استقرأ التاريخ وجد انه لايكاد يخلو عصر من العصور من وجوده فى أهله وجدت أجرامه فى كل جاهلية ثم تعدتها الى ماكان معها من الامم المتحضرة وبقيت فيها حتى بعد انقضاء الحاجة اليه وزوالها أصلا فلقد عرف الاسترقاق فى اليهودية واليونان والرومانيين كما عرف بين قدماء الالمان ولقد أفرط الاخيرون فى استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل فى ذلك

ولقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق . أحدهما استرقاق بعض أفراد منهم لسبب ارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة شرعا أو فى دين عليه وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد مضى ست سنوات عليه فى خدمة من هو فى ملكه الا اذا فضل البقاء رقيقا. والنوع الآخر استرقاق غير اليهود ممن قضى عليهم أن يصيبهم شئ من عسف اليهود وحروبهم التى كانوا يقيمونها بلامسوغ سوى الشره على السيادة وارضاء نفوسهم الخبيثة بما شاءت من الظلم فكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع ويعاملونهم أقبح من معاملة الحيوانات العجم سواء فى ذلك العبيد المستخدمة فى المنازل

وعبيد الحقول والمزارع فانهم كانوا يقضون حياتهم مبغضين مهينين معزولين محقرين مسخرين ثم جاء المسيح عليه السلام فلم يمنع الاسترقاق ولم يضع حدوداً تراعى ولا وسيلة تؤدى يوما ما الى نسخه أو تقليله نعم انه جاء ببعض كلمات تتعلق بعدم طاعة الرقيق وببعض نصائح للسادة ليمكنوا الرقيق من تلقي ماجاء به المسيح عليه السلام من قواعد دينه على ان كثيراً من الامم المسيحية كانوا أشره الناس علي اتخاذ الرقيق وأقساهم في معاملته

انتشر الاسترقاق بين الرومان منذ نشأتهم الاولى من غير تفريق بين من كان رومانيا أو أجنبيا فكانوا يملكونهم اما بحرب أو شراء أو اختطاف ولا يعتبرونهم الا متاعا ولقد تغالوا فى السيطرة عليهم فلقد كان للسيد أن يتصرف فى عبده حتى كان له أن يقتله نعم انه قد هذب هذا القانون بعد حتى خف فى الجملة على الارقاء أعباء ما كانوا يحتملون ولكنهم مع ذلك كانوا تحت سلطة سادتهم المطلقة فلقد كان لامراء الرومان وأشرافهم الالوف من الارقاء يستخدمونهم فيما شاؤا ويوقعون بهم من الآلام ماشاؤا غير مسؤلين عما فعلوا .

ان دخول الدين المسيحى فى أوروبا لم يقلل من الاسترقاق الا من جهة واحدة . ذلك أن الرقيق كان يصير حراً بالرهبانية وانقطاعه الي خدمة الدين على شرط أن لا يظهر له سيد يدعيه فى خلال ثلاث سنوات . أما من الجهات الاخرى فان الاسترقاق بين مسيحيي أوروبا لم يكن بأخف بطشا ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس . ولقد جاء في جملة قوانينهم المدنية ان الاسترقاق من الامور الطبيعية كما انها قدرت أثمان

العبيد واعتبرت في تقديرها مايحسنه الرقيق من المهن والاعمال.
ومنها عدم اباحة التزاوج بين الارقاء ولا بينهم وبين الاحرار وقد قدر القانون أشد العقوبات صرامة فيما اذا تزوج الرقيق حرة فقضى على الحرة المتزوجة بالعبد بالقتل وقضى على الزوج أن يحرق حيا . كان ذلك حال الاسترقاق فى أوروبا فى القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام

فلما تقوضت أركان المملكة الرومانية وأسست على انقاضها المملكتان الشرقية والغربية لم يقف أمر الاسترقاق الى الحد الذى كان مألوفا عند سلفهم بل كان لاشراف الامتين وأمرائهما القول الفصل والرأى الاعلى والكلمة النافذة فى الفلاحين الذين تحت أيديهم فكانوا ملاكهم وحماتهم وسادتهم وحكامهم فلم يكن في ذلك الوقت من هو أرقى منهم حكمة وأعلي سلطانا سوى نفس الحكومة التى قلما وضعت بين المالك والمملوك شيئا من الحدود

على ان الكنائس فى أوربا قد اتخذت الارقاء وأباحت لغيرها اتخاذهم كما ان كثيراً من الناس كانوا يذهبون الى استحسان ذلك واعتباره من أحسن الوسائل لمنع الناس من السؤال ولقطع دابر السارقين وقطاع الطرق (واعلم) أن أقبح أنواع الاسترقاق ما كان فى أمريكا الشمالية ولم يزل فاشيا فيها حتى كانت الحروب الدينية التى تأججت نارها فى سنة ١٨٦٥ الميلادية

نحا كثير من الامريكيين نحو ما كان عند الامم السالفة من اليهود والفرس والرومان على ماهم عليه من العلم الغزير والتحضر الذى لم يسبقوا

اليه فكان الامريكى الابيض النصراني يملك الامة السوداء ويولدها البنين على انه مع ذلك لا يعتبرها أم ولده كما فعل الاسلام بل كان لابنه الابيض أن يبيعها ويبيع ذريتها الذين هم أخوته من صلب أبيه

وبالجملة يمكن الحكم بان الدين النصرانى لم يأت بما يقطع دابر الاسترقاق أو ينافيه كما ان الامم المسيحية على اختلافها وتباين مشاربها كانت لا تبالى أن تسترق من شاءت وان تستخدم الرقيق كيف شاءت وتعامله كما شاءت ولم يزالوا كذلك حتى انتشر أمر التعليم فيهم فهذب من نفوسهم وأضعف من قسوتهم فتعاهدوا هم وغيرهم من الامم المتحضرة على حماية نوع الانسان والحيلولة بين أفرادهم أن يسيطر بعضهم على بعض الا بقدر ماتقتضيه النواميس الشرعية. على انا شاهدنا بأنفسنا أحوالا استبيح فيها الاسترقاق بلا مسوغ عادل بل روعى فيها مقتضيات النظام . فمن ذلك أن الحكومتين المصرية والانكليزية افتتحتا حديثا بلاد السودان المصرى فهمّ العبيد الذين كانوا هناك بمغادرة ساداتهم لعلمهم ان الحكومات النظامية المتحضرة هى حامية الحرية ومؤيدتها فلما رأت الامة الفاتحة ان هذا لابد أن يفضى الى تعطيل الاعمال وارتباك الاحوال وبوار الحقول والمزارع أقرت ما كان على ما كان وجارت أحكام الزمان والمكان

واذ قد فرغنا من بعض المقدمات التمهيدية فدونك مافعل الاسلام فى الرقيق والاسترقاق

(١) سوّى الاسلام بين الامم من غير اعتبار اختلاف أصنافها

وألوانها فسوّى بين الابيض والاسود والبدوى والمتحضر والرعايا والمرعيين والرجال والنساء والمسلمين واليهود والنصاري ماداموا في سلم

انظر الى المسلمين وهم فى المسجد يؤدون فريضة الصلاة أو فى مكة وهم يحجون البيت الكريم أو في المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام أفتجد فيهم من مقدم ومؤخر أو من فاضل ومفضول كيف والله تعالى جعل المؤمنين اخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتا الا بقدر مايتفاضلون به من الحق فلقد قال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع

« أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس فلا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فاني قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لن تضلوا بعدى — كتاب الله — أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ان أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربيّ فضل على عجميّ الا بالتقوى »

أين هذا مما يفعله أهل أمريكا حتى الآن وهم في مقدمة الامم حضارة وعلما ؟ ازدرى البيض منهم السود وامتهنوهم لسواد ألوانهم وتجنبوهم وحرموهم كثيراً من المزايا التى استمتع بها البيض ولطالما نشرت الجرائد مايفعلون بهم من الفتك والمقت والتجافي عن مخالطتهم حتي لقد خصصوا لهم فى مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم لايجوز لهم أن يتجاوزوها الى غيرها

زعم كثير من الناس لاسيما من غير المسلمين أن الاسلام أباح للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض مستدلين على ذلك بما يفعل

النخاسون من أهل البادية وأهل السودان وكثير من الاتراك وقد تقدم لنا أنه لا ينبغي الاستدلال على صحة الدين أو فساده بما يفعل أهله فان هذا من العبث الذي ينبغي أن تصان عقول العقلاء عنه

ان الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا ثم انه لا يبيح بعد ذلك الا استرقاق أسرى حرب شرعية لم تقم الا لاعلاء كلمة الله تعالى مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم . فمن هنا يؤخذ أن أسرى الحروب التي أقامها كثير من أمراء المسلمين وخلفائهم لا لغرض سوى النهب والسلب والبطش مع العدوان على الغير لا يجوز استرقاقهم بحال سواء كانوا مسلمين أو غيرهم كتابيين أو وثنيين أو مجوسا

أما استرقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب كعبدة الاوثان فقال مالك والشافعى واحمد فى احدى روايتيه ان ذلك لا يجوز مطلقا فماذا ترى فيمن يذهبون الى الصحارى ويختطفون ماوصلت اليه أيديهم من السودان وغيرهم ثم يجلبونهم كما يجلبون المتاع فيعرضونهم فى الاسواق عرض الحيوانات العجم وكثير منهم مسلمون ؟ وماذا ترى في كثير من الامراء وشيوخ المسلمين يجيئون اليهم ويسومونهم كما يسام المتاع ثم يسوقونهم الى بيوتهم اما للخدمة واما للافتراش ؟ وماذا ترى فى الذرية التي ينتجها افتراش ابتني على هذا الاسترقاق الفاسد ؟ ان الدين لبرىء مما جنى عليه أولئك الطغاة الجهلة وطاهر مما ألصقوه به من ذلك الدنس والرجس قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ماشاءت أن تسول فافتاتوا على الله ونسبوا اليه مانسبوا متقولين عليه وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق

بتكذيبهم وتأنيبهم

(واعلم) ان هناك نوعا من الاسترقاق فشا فى المسلمين أيضا وهو لا يبيحه الشرع أيضا ذلك ان بعض أمم آسيا كالقوقاز وغيرهم قد يحدو بهم الفقر المدقع الى جلب بناتهم بأيديهم الى أسواق بعض المدن الاسلامية وهن صغار جداً ليبيعوهن الي الامراء والمثرين من الرجال ولقد يكون منهن المراهقات والنساء حتي اذ صارت احداهن فى ملك أحد استباح منها واتخذها فراشاً يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة وما يخدع الا نفسه من حيث لا يشعر فيظل طول حياته مستبيحا ما حرمه الاسلام ويدخل فى دينه ما أملته عليه وساوس الاوهام

هذا . ولنعد بك الى ما يتعلق بالرقيق فى الاسلام فنقول

(٢) كل من أسلم من الاسرى عصم نفسه وماله

(٣) مجرد دخول العدو المحارب دار الاسلام أمان له من السبى عند مالك والشافعى وأحمد بن حنبل

(٤) للرقيق فى الاسلام أن يتزوج بنت سيده فينقلب بذلك سيد البيت

أين هذا مما سبق لنا نقله من قوانين أوروبا فى القرن الثالث عشر من تحريم التزاوج بين الارقاء وكذا بينهم وبين الاحرار وانه يجب قتل المرأة التى يتزوجها عبد كما يجب احراقه حياً ؟

(٥) جاء الاسلام فوضع من الاصول والنواميس ما كاد يقضى على الاسترقاق لولا ان الامم العربية وغيرها كانت اذ ذاك على ما نعلم فى أمر

الاسترقاق وبديهى انه لايمكن ان يزيل النبي عليه السلام فى بضع سنين أمراً ألفته النفوس واستولى عليها ذلك الاستيلاء. لذلك كان النبي عليه السلام يرغب الناس فى العتق كما جعل هناك أحوالا يلزم فيها السيد بالاعتاق . فمن ذلك

(١) اخبار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه غير مرة بان العتق من أجل العبادات وأقربها قبولا عند الله

(٢) انه جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث فى بعض الايمان

(٣) ان مكاتبة العبد مستحبة بالاجماع وللامام أحمد فى رواية انها واجبة متى دعا العبد سيده اليها على قدر قيمته أو أكثر وان للعبد الاستغلال ليحصل على مايدفعه لسيده من نجوم الكتابة وان على سيده ان يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء

(٤) اذا امتنع المكاتب عن الاداء ومعه مابقى فالحنفية تجبره علي الأداء . واذا لم يكن معه مال ولكنه قادر على الكسب فالمالكية تجبره على الكسب لانه ليس له تعجيز نفسه مادام قادراً عليه

(٥) يراعى فى عقد الكتابة حالة الرقيق فأقل وعد من السيد أو أقل احتمال للوعد بالتحرير يجعل التحرير ضروريا

(٦) اتفق الأئمة علي انه لو كان فى يد انسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه انه عبده فكذبه الغلام فالقول قول المكذب مع يمينه انه حر . فترى فى هذه الصورة ان قاعدة (البينة على المدعى واليمين على من انكر) قد خولفت مراعاة لحالة الرقيق فلم يطلب الشرع من المدعى البينة أولا

بل جعل القول للمنكر بيمينه ولا يخفى ما يدل عليه هذا من شدة حرص الشارع على تحرير الرقاب ما وجد لذلك سبيلا

(٧) قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطى الحاكم للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبته أو أن يشتري الحاكم العبيد المملوكين ويعتقهم

(٨) ان من افترش أمة وأتى منها بأولاد فهى أم ولده لا يجوز له أن يبيعها ولكنها لا تتحرر تماما الا بعد موته

(٩) استوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالارقاء خيراً فجعل حقوق العبد على سيده كحقوق المترافقين والمتجاورين والمسافرين فلا يجوز للسيد أن يكلف رقيقه مالا يطيق من العمل أو أن يدعوه بألقاب الازدراء والتحقير كما لا يجوز للسادة أن يفرقوا بين أنفسهم وبين عبيدهم فى المأكل والملبس ونحوهما

٧
المرأة فى نظر الاسلام

قبل التكلم على المرأة في الاسلام نأتيك بشذرات تبين لك شأنها قبل ظهور ذلك الدين الحنيف فى الامم المختلفة ثم نردف ذلك ببيان مامنح الله المرأة فى الاسلام غير معولين فى جميع ذلك الا على كتاب الله تعالى وسنته الصحيحة

كلنا يعلم ما كانت عليه أمة الفرس من الحضارة القديمة كما نعلم ما اشتهر به بعض ملوك فارس من العدل والفضل حتى ضربت بهم

الامثال أفأدلك على ما كانت المرأة تعامل به فيهم؟ كان للرجل ان يتزوج من النساء من شاء من غير وقوف عند حد ولا تقيد بشرط ولا سؤال عن حق ولقد كان له أيضاً أن يتخذ من الاخدان من شاء

فاذا اعتبرنا العرب الذين ظهر فيهم النبي صلى الله عليه وسلم نجد حالة المرأة فيهم أبشع واشنع فلقد كانت المرأة بين وثني العرب معتبرة سلعة محضة فاذا مات رجلها ورثت فيما يورث حتى كان للابن الوارث أن يفترش زوجة أبيه أو أمته كما كان له ان يهبها لمن شاء وأن يبيعها ممن شاء هذا عند وثني العرب

ولم تكن منزلة البنت اليهودية عند أبيها أرفع شأناً من ملك اليمين فلقد كان للاب أن يبيع ابنته قبل بلوغها كما كان لابنه الذكر أن يفعل ذلك

وكانت العرب وثنيهم ويهوديهم يتزوجون من النساء ولا يقتصرون على عدد كما كان نكاح المتعة فاشياً فيهم حتى جاء الاسلام فأبطله على ما يأتي

كانت العرب تئد البنات إما من فاقة أو خشية عار يأتينه متى كبرن حتى قال قائلهم « دفن البنات من المكرمات »

هكذا كان شأن المرأة بين أكثر قبائل العرب وغيرهم فلم تكن بين الفرس والرومان الشرقيين أهنأ بالا ولا أعز شأنا ولا أكثر حرمة منها بين العرب

ومن المعلوم ان أحسن القوانين مالا يشتمل على التضييق ويلائم فريقا دون فريق وكذلك جاء القرآن الكريم والسنة السمحة بتلك النواميس التى تلائم بلا ريب أرقى الامم تحضرا وأصدقهم فكراً كما

تلائم وتنطبق على الامم الذين لايزالون فى مهد الفطرة الاولى .

ساوى الاسلام بين الذكران والاناث فى جميع التكاليف الشرعية الا فى أحوال خاصة قليلة كما ساوى بين الصنفين فى الحقوق المدنية وجعل لكل أن يتقاضى حقه من الآخر وأن يبيع ويشترى ويعقد ماشاء من العقود مادام عاقلا رشيداً

جاء بذلك الاسلام منذ ثلاثة عشر قرناً فتمتعت النساء بماملكت أيمانهن من غير توقف على اذن زوج أو تقرير مسيطر مع ان معظم أمم أوروبا لم يطلقوا العنان للمرأة ان تتصرف فيما ملكت يدها اللهم الا ماأدخلته الحكومة الانجليزية وقليل غيرها من أهل أوروبا منذ ثلاثين سنة من القوانين التى خولت للمرأة فيها شيئاً من ذلك ولم يكن هذا معروفا فيهم من قبل

جاء الاسلام وقد كانت المرأة لاتكاد تمتاز عن الحيوانات العجم لاتقرأ ولاتفهم ولاتستفتى في أمر ولاتقضى ولاتأمر ولاتنهى فهلا علمت مافعل الاسلام؟ جاء النبى فكان فى بيته أحسن أسوة للمسلمين وما زال صلى الله عليه وسلم تنزل عليه الآيات فى شأن النساء حتى اصبحن ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف

أوجب الله تعالى تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة كما أوجب على أمهات المؤمنين أن يعلمن الناس ذكورهم واناثهم (واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) فكان الرجل (وكان ما كان فى الجاهلية) يأتي اليهن ويستفتيهن ويتلقي مايلقينه من أحكام الله ومكارم الاخلاق

وبذلك أخذت عقول الرجال ترجع الى رشدها وتعلم ان لا دخل لاختلاف الصنف أو الشعوب أو الامم في التفاضل فقد جعل الله التفاضل بين الكائنات تابعا لما فيها من الفضل والمزايا والخصيصات (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) لم يقل الله ان الرجال قوامون على النساء مسيطرون عليهن بمقتضى الفطرة البشرية أو لان عقولهم تخالف عقولهن ولكن الله جعل انفاق الرجل على المرأة من علل الفضل كما جعل من العلل أيضا ماقد يمنح الله القوامين على النساء من المزايا ولولا ذلك ما كان للرجل قوامة على المرأة ومن ذا الذي يستطيع أن يعتقد فضل بدوى عقله أخلى من أرض البادية علي المرأة التى وصلت الليالي بالايام فى طلب العلم حتى تثقف عقلها وتهذبت نفسها كلا ان الله لم يجعل التفاضل الا حيث يكون مامنح من الفضل كما قال (هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) وقال (هل يستوى الاعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور)

أباح الشرع للمرأة مادامت من أهل التصرف فى مالها أن تتزوج بنفسها وأن توكل غيرها فى زواجها ولا اعتراض عليها الا أن تضع المرأة نفسها فى غير كفء فهناك يعترض الولىّ عليها ويطلب من القاضي فسخ زواجها

جعل الشارع للمرأة أن تشترط فى صلب عقدها أن يكون أمرها بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت

ففى الدر «ان تزوجها على أن أمرها بيدها صح» قال ابن عابدين

هذا مقيدها اذا ابتدأت المرأة فقالت زوجتك نفسى على ان أمرى بيدى فقال الزوج قبلت » اهـ بتصرف (١) ولقد يعترض على قسمة المواريث من لم يتدبر اذ قضى للمرأة ان يكون لها نصف نصيب الرجل فيتوهم ان فى هذا اجحافا بحقوقها ولكننا عند التأمل نجدها قد زاد حظها وجل نصيبها وذلك ان المرأة كما سيأتى عالة على الرجل فى معظم أدوار حياتها فيجب عليه شرعا أن ينفق عليها ويأتي اليها بمطالبها كما يقتضيه عرف القبيل الذي هما فيه فاذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف. فتقدير الشارع لها حظا من المواريث غاية فى الرأفة بها ورعى جانبها والعناية بشأنها

فأين حجر الاسلام على المرأة وأين التضييق عليها مع هذه المسامحة

٨

فصل فى تعدد الزوجات فى الاسلام

تقدم لنا التلميح الي ماحشا به الاورويون كتبهم من الطعن فى الاسلام متمسكين بما أباحته الشريعة من اباحة تزوج أكثر من واحدة ولو كانوا يعرفون العربية ويفقهون كتاب الله وقواعده مااستطاعوا أن يلصقوا بالاسلام ماليس من شيمه

ان النقائص التى مثلت بالاسلام فى أعين غير أهله انما نشأت من

---

(١) السطور الموضوع تحتها خطوط لم تكن فى الطبعة الاولى وقد زادها المؤلف بخطه فى النسخة التى نقلنا عنها

اعتبار أعمال الخلف الطالح ميزاناً لتقدر بها قوانين الشرع ونواميسه فمن قائل بسد باب الاجتهاد ومن امام أوخليفة قضت عليه أغراضه البهيمية أن ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب اليه ماليس من دينه فى شئ ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعا الي الزلفي منه . ومن أحمق أرعن لم يرض من اليسر مارضي الله لعباده فشط بالناس واعتسف بهم حتى ضاقت نفوسهم وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الانسان مثنى وثلاث ورباع ولكن الله تعالى يقول فان خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة فتراه قد شرط اباحة تعدد الزوجات بالعدل كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سببا كافيا فى تحريم التعدد ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين النساء ولو حرصوا فمابالنا مع جميع ذلك نرى كثيرا من المسلمين يفقهون بعض آيات الكتاب دون بعض ؟ عجبا أغفل الناس كثيراً من القواعد الاسلامية التي يجب تقدير الاعمال بها وزنة التصرفات الانسانية بميزانها

واعلم أن المعتزلة وهم كما تعلم من المسلمين يقولون بعدم جواز أن يتزوج الرجل ثانية مادامت الاولى فى عصمته كما ذكره الامير على فى كتابه « سر الاسلام » وماذلك الا لانهم تتبعوا ما يجلبه ذلك من المفاسد والمضارة وعرفوا ان من أصول الشريعة المحمدية اعطاء الوسائل ماللغايات من الاحكام فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لا يستحسنها عقل ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتاً وذلك لانه أرسل رسوله للناس كافة بشيراً ونذيراً ولاريب أن ثمة أحوالا يحسن أو يجب فيها تعدد الزوجات ولا يمكن لاحد القرار من الاعتراف بوجود كثير من الاحوال التى تقتضى ذلك ولأضرب لك مثلا رجلا تزوج امرأة فأصابها مرض مزمن ورجلا تزوج امرأته فكان يستمر معها الحيض الى خمسة عشر يوما ورجلا تكره امرأته المباشرة فى كثير من أشهر الحمل وهلم جرا فأمثال هؤلاء الرجال اما ان يصبروا مع العنت والشقة وقليل الصابرون واما ان يأتوا الفاحشة وأولئك هم الخاطئون

انى لاأرى كما يرى كل عاقل ان تعدد الزوجات بالغة مثالبه ما بلغت أسلم عاقبة من اتيان الفاحشة ومن الشواهد التى يحسن ذكرها مانقله الامير على فى كتابه « سر الاسلام » عن السيدة غوردون الانجليزية انها تأملت فى أحوال كثير من البلاد الاسلامية او الشرقية اجمالا فرأت ان تعدد الزوجات اكثر مايكون فى البقاع التى تكثر فيها الفاقة وتقل فيها المرافق فيصعب على النساء الاعتماد على انفسهن فى تحصيل المرافق والاخذ بأسباب العيش وقد رأت تلك السيدة ان هذه احدى الضرورات التى يخول معها التعدد

جمعتني المصادفات برجل اسبانى قابلته في لوندره فمكثنا نتحادث فى كثير من مسائل الدين الاسلامى فما خضنا فيه أمر تعدد الزوجات فقال انه يتمني لو كان مسلما فيتزوج امرأة غير زوجته فسألته فى ذلك فقال ان امرأتى قد أصيبت بجنون وهاهي تلك تعالج في بيمارستان « مجريط »

ولها على ذلك سنون كثيرة ولقد اضطرني الامر أن أتخذ بعض الاخدان لعدم استطاعتي التزوج بأخرى فلو ان هذا كان مباحاً لنا لكان لي عقب شرعي يرثني فيما لدي من المال الكثير ويكون لي قرة عين وخير رفيق أطمئن به وأسكن اليه

ثم تقابلت في اكسفورد مع دكتور فاضل وقد جرت عادة الانجليز انهم متى رأوا غريباً سألوه في جميع مايلج في صدورهم . سألني ذلك الدكتور عن وجه تعدد الزوجات في الاسلام وذكر انه يستقبحه فما زلت به حتى كاد يذعن لما أبديت له من الاسباب ثم قال انني أكاد أرى وجه ماتقوله ولكن لي كلمة في نبيكم صلى الله عليه وسلم فقلت ماهي قال ان منزلة النبوة التي ادعاها كان يجب أن تحول بينه وبين اكثاره من عدد الزوجات فعندذلك قلت له انني ياسيدي كثير التجارب وقد رأيت في الانجليز وفي المصريين والاتراك والفرنسيس وغيرهم من الامم من لايقنع بواحدة ولايعكف علي ما أحل الله مادام يملك شيئاً من المال وهذا أيها السيد أحد الاسباب في قلة عدد ذراري الاغنياء والمثرين وكثرة عيال الفقراء والمعوزين ولوملكت أيديهم فضلا من المال والسعة لما قنعوا بما أوتوا أفتنكر بعد ذلك ان تعدد الزوجات أدعى للعفة والحصانة وأضمن لنمو بني الانسان . فما كان من ذلك الفاضل الا ان قال ان معظم ماقلته حق لا مراء فيه ثم ذكرت له اسباب اكثار النبي من النساء مما سنأتي عليه بعد وانما لم أبدأ بذكر تلك الاسباب لانني قصدت الزامه من أول الامر بضرورة تعدد الزوجات في بعض الاوقات أخذا مما عليه

الناس فى أحوالهم الدنيوية التي لا يسعه انكار شىء منها فلما أضعفت من قوة تعصبه وفللت من حدته أخذت أسرد له الاسباب التى لم يجد لانكار شىء منها سبيلا

والخلاصة ان اعتبار كون تعدد الزوجات مصدراً لكثير من المفاسد انما هو أمر اضافى ولا يمكن اتخاذه حكما عاماً فان ذلك يختلف باختلاف الامم والازمنة والامكنة والاحوال . انظر الى ما كان معروفا فى بدء النصرانية من استقباح الزواج رأساً وتقبيح المتزوجين وتفضيل الرهبانية

ولقد قضت الرهبانية فى الاعصر الخالية ان يُقبر فى الديور كثير من العقول الذكية التى لم يجن منها عالم الحياة الدنيا أقل فائدة أما منشأ ذلك فقد كان اما تقليد المسيح عليه السلام أو بعض أسباب أخرى كالتفرغ المطلق الى عبادة الحق تعالى ولا يزال قسوس الكاثوليك يذهبون ذلك المذهب ويزدرون المتزوج لما دنس نفسه بميله الى الشهوات الحيوانية قالوا ان المسيح عليه السلام روح الله فكان أقدر الناس على غلبة شهواته وقارنوا بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم القائل «لا رهبانية فى الاسلام» ثم انتهى بهم القياس الى الحط من كرامة الاخير وقالوا شتان بين من غلب نفسه وبين من استرسل مع هواها فأرضاها ولا يخفى بطلان هذه القضية فانه لا تنافى بين الصلاح والزواج على ان تقليد المسيح فى رهبانيته لا يبلغ غايته الا بخراب البيوت وتلاشى الامم وانقراض النوع الانسانى ولا يخفى ان هذا ينافى مقتضيات العمران . ومطالب نظام الاكوان .

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فيما أتاه بدعا من الرسل فذانك موسى وداود عليهما السلام تزوجا كثيراً من النساء وهما ذانك الرسولان اللذان لا يسع نصرانياً ولا يهوديا انكار نبوتهما أو احتقار ماأتيا به من الصحف السماوية الاولى . هذا ونذكر لك هنا فى زوجات المصطفى صلى الله عليه وسلم مافيه غناء ان شاء الله تعالى فنقول. اعلم ان اكثر المسلمين اتفقوا على ان للنبى صلى الله عليه وسلم من الخصائص مالم يكن لغيره من أمته وذكروا أشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذى أباحه لغيره بشروطه ولا يخفى ان مثل هـذا لا يكفى لاقناع غير المسلمين الذين نددوا بالنبي عليه الصلاة والسلام ولم يجدوا في كتب المسلمين ماينهض حجة لهم اللهم الا قليلا ممن أيده الله بروح منه فنريد أن نذكر لك من أسباب ذلك مافيه مقنع ان شاء الله

فاعلم ان أول أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة تزوجها قبل البعثة وهو ابن خمسة وعشرين على انها كانت بنت أربعين سنة

قضى النبي صلى الله عليه وسلم شبيبته وطائفة من كهولتـه ولا زوج له الا خديجة ماتت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات بعد ان مكثت مع النبى صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ولدت له فيها جميع أولاده ماعدا ابراهيم فلم يتزوج النبي قبل بعثته من شاء وهو فى ريعان شبابه وقد كانت العرب على ماعلمت يكثرون من الزوجات حتى ان منهم من كان تحته العشرون فى وقت واحد فلو كان هناك سلطان للهوى على قلب المصطفى صلي الله عليـه وسلم لاتخذ من الزوجات

من شاء وهو فى مقتبل شبابه واستكمال قواه الطبيعية لا شرع يحول بينه وبين بغيته ولا عادة تمنعه مراعاتها من قضاء مآربه لا سيما وقد كان مرغوبا فيه بين الناس لما اشتهر من مكارم أخلاقه وجميل خصاله

بعد ان ماتت خديجة ببضعة أشهر تزوج النبي صلى الله عليه وسلم سودة وكانت أيمًا مات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة الثانية الى الحبشة وقد كانت أسلمت رضى الله عنها وخالفت بني عمها وأقاربها فما أجمل ماعمله النبي من الرحمة بها وتعويضها خيرا مما فقدت فقدمات عنها زوجها ولا حامى لها دون أقاربها الذين اسلمت رغم أنفهم فكان تزوج النبي بها حماية لها أن تصل اليها يد الأذى كما كان ذلك اكبر سلوان لها على فقد زوجها

مات أبو طالب لشهر من موت خديجة ففقد النبي بموته رجلا كان يناضل عنه ويدفع عنه أعداءه مااستطاع فأخذ الامر اذ ذاك يشتد على النبي صلى الله عليه وسلم فرأى ان يوثق الرباط بينه وبين قريش فعقد على عائشة وهى اذ ذاك بنت سبع فان أباها الصديق رضى الله عنه كان صدراً وجيهاً في قريش واسع المال عزيز الجانب يدلك على ذلك مسارعة النبي صلى الله غليه وسلم بالعقد عليها مع انها قاصر وانه لم يبن بها الا بعد ذلك بنحو سنتين فلم تكن وقت ذاك مطمعاً لقضاء شئ من المآرب الشهوية حتى يطمح اليها نظر النبى أو غيره

ومن هذا القبيل تزوجه صلى الله عليه وسلم بام حبيبة بنت أبى سفيان وكانت ببلاد الحبشة في الهجرة الثانية مات عنها زوجها هناك وماهو

الا أن انقضت عدتها حتى أبلغها النجاشى انه قد كتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزوجه اياها .

كل من اطلع على التاريخ يعلم مقدار ما كان بين النبى وبين بنى أمية من العداء كما يعلم انه قد كان أبو سفيان ألدّ بنى أمية عداوة لرسول الله وللمسلمين فانه لم يدخل فى الاسلام الا بعد ان نال المسلمين ما نالهم من أذاه الشديد فتزوج النبي عليه السلام أم حبيبة ليكون بينه وبين ألد أعدائه لحمة نسب تكون له في الجملة وسيلة الى حملهم على تقليل الاذى عنه كما انه صلى الله عليه وسلم اختارها لنفسه لانها خرجت من ديارها فارة بدينها ففى عدم حمايتها ووقايتها وقد مات زوجها تعريض لها الى مقاساة المصاعب والاهوال وانما اختارها النبي لنفسه لمكانتها في قومها فلو انها زوجت بغير كفء لاتخذ بنو أمية ذلك شبهة يوغرون بها صدور بيوتاتهم ويحرشونهم بالمسلمين على قلتهم وضعفهم

كانت الاسرى من النساء يتخذن اماء لا يسوى بينهن وبين الحرائر في شئ على انهن قلما أعتقن فأراد النبى أن يعلم المسلمين بالعمل ما ينبغى أن يصنعوا بما فى أيديهم من الاسرى من التحرير والكرامة وأن يجعلن سيدات البيوت فمن ذلك تزوجه بجويرية. قالت عائشة رضى الله عنها اصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء بنى المصطلق فأخرج الخمس منه ثم قسمه بين الناس فأعطى الفرس سهمين والرجل سهما فوقعت جويرية بنت الحرث بن أبى ضرار فى سهم ثابت بن قيس فجاءت الى الرسول فقالت يارسول الله انا جويرية بنت الحرث سيد قومه وقد اصابني من

الامر ماقد علمت وقد كاتبني ثابت على تسع اواق فأعني على فكاكي فقال
اوخير من ذلك فقالت ماهو فقال أؤدي عنك كتابتك واتزوجك فقالت
نعم يارسول الله فقال رسول الله قد فعلت وخرج الخبر الى الناس فقالوا
اصهار رسول الله يسترقون فأعتقوا ما كان في ايديهم من سبي بني المصطلق
فبلغ عتقهم مائة بيت بتزوجه عليه السلام اياها. فانظر الي ماقصد الرسول
عليه السلام من تزوجه بها

ومن ذلك أيضاً تزوجه بصفية بنت حيي وكانت من أشرف بيوت
اليهود ثم صارت سبياً بعد وقعة خيبر وكانت مما اصطفاه صلى الله عليه
وسلم من الغنائم

وعن ابراهيم بن جعفر عن أبيه قال لما دخلت صفية على النبي صلى الله
عليه وسلم قال لها لم يزل أبوك من أشد اليهود لى عداوة حتى قتله الله
فقالت يارسول الله ان الله يقول فى كتابه ولا تزر وازرة وزر أخرى فقال
لها رسول الله اختارى فان اخترت الاسلام أمسكتك لنفسى وان اخترت
اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك فقالت يارسول الله لقد هويت
الاسلام وصدقت بك قبل أن تدعونى حيث صرت الى رحلك ومالى فى
اليهودية أرب ومالى فيها والد ولا أخ وخيرتني الكفر والاسلام فالله
ورسوله أحب الىّ من العتق وأن أرجع الي قومى قال فأمسكها رسول
الله لنفسه وقد رضيته بعلا مع انه كان لها أن ترجع الي أهلها بعد العتق

هذا واعلم ان أمر الثأر فى الجاهلية معروف وقد حاول كثير من
الانبياء كموسى والسيد المسيح وغيرهما حقن الدماء ونسخ تلك العادة

القبيحة فلم يفلحوا لما ان ذلك كان أمراً راسخا في نفوس العرب أشربته قلوبهم فلم ينجع فيهم دواء حتى أتى النبي بجمل من عقود انكحته ماربط كثيراً من القبائل بعضها الي بعض فبذا قرب ما بينها وأزال كثيرا من احقادها وأطفأ سورة ما فى صدورها من الغل والضغائن حتى قلت في أيامه صلى الله عليه وسلم الغارات وكاد يتناسى امر الثارات

هذا وتتميما لهذا الموضوع نريد ان نذكر كلمة في تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب امرأة مولاه زيد

قال الاستاذ الحكيم (١) ان زينب كانت بنت عمة النبي صلى الله عليه وسلم ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لاول الامر حتى انه اختارها لمولاه زوجة مع إبائها وإباء أخيها وعد هـذا عصيانا ولا زال كذلك حتى نزل فى شأنها آية (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً)

ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لـكان أقوى سلطان عليه جمال البكر فى روائه ونضرة جدته وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ولا يخفى عليه شئ من محاسنها الظاهرة فكيف يمتد نظره اليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم الله عليه بالعتق والحرية . لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر ان تعظم شهوة الغريب وولعه بالقريب الى أن تبلغ حد العتق خصوصاً اذا كان عشيره منذ

---

(١) انظر تفسير سورة الفاتحة

صغره بل المألوف زهادة الاقرباء بعضهم فى بعض متى تعاشروا فكيف نظن أو نتوهم ان النبي الذي يقول الله له (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا) يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر الله فى ذلك أم كيف يخطر بالبال ان من عصم الله قلبه عن كل دنيئة يغلب عليه سلطان شهوة فى بنت عمته بعد أن زوجها بنفسه لعبد من عبيده

ان النبي لم يبال باباء زينب ورغبتها عن زيد وقد كان لا يخفى عليه ان نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شؤون المعيشة فما كان له وهو سيد المصلحين ان يرغم امرأة على الاقتران برجل وهى لا ترضاه مع ما فى ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين لولا ان النبي يجد من نفسه ان هذا القران مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم آلهى ذلك ان التصاق الادعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب فكانوا يعطون الدعى جميع حقوق الابن ويجرون عليه وله جميع الاحكام التى يعتبرونها للابن حتى من الميراث وحرمة النسب فأراد الله محو ذلك بالاسلام حتى لا يعرف من النسب الا الصريح (وما جعل ادعياءكم ابناءكم) ثم قال (ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا آبائهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) فبين الله ان ليس للتبنى الا حق المولى والاخ فى الدين

وكان من عادة المصطفى ان يبادر فى كثير من شرائعه الى اقامتها بنفسه ليكون قدوة حسنة ومثالا صالحا تحاكيه النفوس وتحتذيه الهمم وحتى

يخف وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة وعلى هذه السنة جاء تزوجه بزينب اذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الامر بنفسه في أحد عتقائه لتسقط العادة بالفعل كما ألغى حكمها بالقول الفصل فبعد ان صارت زينب الى زيد لم يلن اباؤها الاول ولم يسلس قيادها بل شمخت بأنفها وذهبت تؤذى زوجها وتفخر عليه بنسبها وبأنها أكرم منه عرقا وأصرح منه حرية لانه لم يجر عليها رق كما جرى عليه فشكا ذلك الى النبي غير مرة وهو يقول له (أمسك عليك زوجك واتق الله) الا انه لم يستطع الصبر على معاشرتها فطلقها ثم تزوجها النبي ليمزق من حجاب تلك العادة كما قال تعالى (لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا) وأكد ذلك بالتصريح فى نفى الشبهة بقوله (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) وقد قالت العرب اذ ذاك تزوج محمد حليلة ابنه

قال أبو بكر بن العربى فأما قولهم ان النبي صلى الله عليه وسلم رآها فوقعت في قلبه فباطل فانه كان معها فى كل وقت وموضع ولم يكن ثمة حجاب فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها فى كل ساعة ولا تقع فى قلبه الا اذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله فكيف يتجدد هوى لم يكن اه ملخصاً

وهكذا كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم فى جميع تزوجاته فلم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه السنوات التى أكثر فيها من الزوجات أخضع لشهوته منه وقد كان فتياً لم يكاف بشىء من أعباء الرسالة ولم ينزل به من أذى قريش وعدائهم ما كان يضعف عن احتماله لولا أن جعله الله من

الصابرين هذا كله على فرض أن أنكحة النبي صلى الله عليه وسلم كانت كلها أو بعضها بعد نزول آية (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) أما اذا كانت قبل ذلك كما حققه الامير على في كتابه سر الاسلام فلا حاجة الى التماس شئ من تلك الاسباب . قال الامير على ان ميمونة بنت الحارث كانت آخر من تزوج النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك فى السنة السابعة للهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد ثم ان الله تعالى بعد ذلك لم يبح للنبى أن يتزوج على من عنده كما فرض عليه ألا يتبدل بهن أزواجاً أخريات فقال (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن الا ماملكت يمينك) أي الا من سبق لك التزوج بهن

وهنا مسألة أولع بايرادها كثير من أحداث هذا الزمان قالوا لم جاز تعدد الزوجات على شرط دون تعدد الازواج

فاعلم ان ذلك يفضى بداهة الى اختلاط الانساب فيقع اللبس فى نسبة النسل ولا يخفى ان ذلك يفضى الى تعطيل كثير من الاحكام الدنيوية كالنفقة والارث وغيرهما

وهنا مسئلة أخرى وهو انه لم جاز للمسلم أن يتزوج كتابية بخلاف العكس وجوابها ان الاسلام جعل لكل كتابى أن يبقى على دينه فالكتابية فى يد المسلم آمنة على دينها بخلاف العكس فان المسلمة فى يد الكتابى لا تأمن أن تفتتن فى دينها فانه لا وازع له من دينه يحول بينه وبين فتنة غيره لاسيما من له عليه سلطان كزوجته والناظر لما يفعل دعاة النصرانية في

العصر الحاضر يرى جلياً وجه ماقلناه ومن هنا يعلم ان المرأة لم تبخس شيئاً مما منحه الرجل

٩

الطـــلاق

مما عدّ وصمة فى الاسلام اباحة الطلاق ولذا ينبغى لنا أن نأتي ببيان ماسيكشف لك ان شاء الله وجه الصواب فيه فنقول

اعلم أن الطلاق أباحه الله تعالى للمسلمين لانه قد تدعو اليه الضرورة أما حيث لاضرورة فسماه النبي صلى الله عليه وسلم أبغض الحلال الى الله كما ان المسلمين اتفقوا على النهى عنه عند استقامة الزوجين فمنهم من قال انه نهى كراهة ومنهم من قال نهى تحريم وقد رأت الحنفية تحريم الطلاق بلا سبب ويؤيد ذلك انه اضرار وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنه فى قوله لاضرر ولاضرار ولقد كره النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلق زيد زوجته زينب مع انها كانت تكثر من ايذائه والاستخفاف به حسبما تقدم لنا آنفا أما الطلاق بسبب فلم يرفضه أحد ولكن اختلفوا فى بيان الاسباب قال ابن عابدين وأما الطلاق فالاصل فيه الحظر أى الحرمة. والاباحة للحاجة الى الخلاص فاذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة الى الخلاص بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران النعمة واخلاص الايذاء بها وبأهلها وأولادها ولذا قالوا ان سببه الحاجة الى الخلاص عند تباين الاخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم اقامة حدود الله تعالى فحيث تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ولذا قال تعالى

فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا أي لا تطلبوا الفراق اه

أما غير المسلمين فمنهم من لم يجوّز الطلاق أصلا الا للزنا كالامة الانكليزية فأيهما اقترفه كان للآخر أن يرفع الامر الى المحكمة ليفصل القاضي بينهما. أما أهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة ثم وجدوا ان هناك أسبابا أخرى يتحتم معها الطلاق ولكن لا فرقة عندهم الا بقضاء قاض ولا بد لجميعهم أن يرجعوا الى ماقرره الاسلام من الاسباب

نعم ان الشريعة الاسلامية لم توقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم وقصار النظر من الناس يرون ان الاول أعدل لان فيه محاسبة الرجل والمرأة على مايعملان فلم يخل السبيل للرجل يفعل ما يريد ولكن دين الاسلام أقوى ركنا وأحكم وضعا وأبعد مرمى فلم يفعل ذلك الا لحكمة صالحة ذلك ان فى تطيق الطلاق على حكم القاضى بثبوت الزنا أقبح تشهير للمقترف وأشنع سبة تنفر عن مرتكبه القلوب وتشوه سمعته فى العالم لاسيما فى مثل هذا العصر الذي تطوف جرائده فى الشوارع والأزقة والدكاكين والبيوت والمصانع وتنتقل من أرض الي أخرى ومن يد الى غيرها مشحونة بتفاصيل مايعرض على المحاكم من هذه القضايا آتية على ماقل منها وماجل فمن ذا الذي يقبل على تزوج رجل أو امرأة قطعت سمعتها الشنعاء المشارق والمغارب ؟ يقضى ذلك الرجل وتلك المرأة مابقى من العمر مرذولين مجفوين ولو استقاما بعد ذلك وأصلحا أما الاسلام فانه جعل للقاضى فسخ الانكحة فى أمور لا بأس فى اعلانها بل ان

اعلانها هو المصلحة الكبرى من ذلك الجب والعنة والجنون والبرص والجذام والاعسار بالنفقة والكسوة والمسكن مما تراه مبسوطا فى كتب الفقه متى رجعت اليها . أما غير هذه الاسباب مما قد يزول أولا كبير خطر في بقائه فللرجل أن يطلق من غير ان يكلف بيانا فيه فما أجمل ستار الشرع الذى يخفي كثيراً من النقائص رجاء ان تزول من قبل أن يظهر عليها أحد وما أرأفه بالانسان الذى قد يهفو ثم يبدو له فينيب

هـذا . واعلم ان الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق أصـلا وغاية ماورد فى الانجيل ان من طلق امرأته وتزوج أخرى فهو زان وهـذا لاتعرض فيه لحـكم الطلاق أصلا

واعلم ان الطلاق في الاسلام كما هو معلوم حق من حقوق الزوج (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم) ولكن الاسلام مع ذلك قد جعل للمرأة كما تقدم ان تشترط فى العقد ان تملك ذلك كما عليه الحنفية فاذا لم تشترط ذلك هي أو وليها فقد أقرت الرجل على الحق الذى خوله له الشرع ولكن مع ذلك لايجوز له أن يوقعه الا حيث يراه الشرع حسنا صالحا كما تقدم

هذا ولم يعتبر الاسلام زنا الرجل من الاسباب التى تطلب بها المرأة فسخ الزواج ولا العكس الا ممن قذف امرأته أو رماها بالزنا أو نفى حملها ولا بينة له فان له أن يلاعن زوجته وتلاعنه ثم يفرق القاضى بينهما والسبب في ان هذه التفرقة لم تبن على مجرد الزنا من حيث هو زنا بل من حيث مايستتبعه من الاحكام الدنيوية المتعلقة بما عسى أن يكون

من الاولاد ولذا كان رمى المرأة للرجل بالزنا لا يصلح علة للفرقة بل ان لهذا حكما آخر ليس هذا موضوع الكلام فيه

فمما تقدم لنا هنا نرى ان الاسلام لم يجر فى جميع ماسردناه عليك هنا الا على مقتضى أصل الفطرة فرفع شأن النساء حتى ساوين الرجال فيما يمكن من المزايا والحقوق ثم لم يبخسهن شيئاً كما أباح للرجال ما أباح من تعدد الزوجات والطلاق مقروناً بما وضعه وقرره من الشروط ولكن — لو أنصف الناس لاستراح القاضى — حارب المسلمون دينهم وماشرط لهم فكان أكثرهم اباحيين لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون

كان الطلاق قبل الاسلام منتشراً فى جميع أمم العرب يهوديها ومسيحيها ووثنيها وكذا بين الرومانيين فلقد اعتبر قانون (الموائد الاثنتى عشرة) الطلاق جائزاً أما ماتشدق به بعض المتشيعين لهم من انهم لم يعملوا بهذا القانون الا بعد خمسة قرون مضت من عهد تأسيس مدينتهم (رومه) فلم يكن سببه مايدعون من بغضهم للطلاق ولكن لان الرجل فى تلك القرون كان له أن يقتل امرأته عقابا لها على بعض الجرائم كالسكر فكانت عند الرجل كالرقيق كما انها اذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبر ذلك منها قحة ونشوزاً يخول له عقوبتها . نعم ان الرومانيين فى أخريات أمرهم أصلحوا كثيراً من شأن المرأة وأنصفوها اذ ساووا بينها وبين الرجال فى كثير من الاشياء

يقول الامير على ان المعتزلة لا يجوزون وقوع الطلاق الا بحكم

القاضى الشرعى العادل فلا بد أن يمتحن الاسباب بلا تحيز فيوقع الطلاق أو يرفضه حسبما يراه صالحاً . ومن هنا يظهر ان من طوائف الاسلام من يعقلون وقوع الطلاق بحكم القاضى فلا يصح عندهم وقوع الطلاق من الزوج الا بعد محاسبته وامتحان أسباب ما يريده من الفرقة

واعلم ان من أكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل أن يسترجع امرأته في الطلقة الاولى والثانية لانه ربما كان التطليق لسورة غضب ثارت فلم يملك نفسه حتى يتروى ويتدبر فرجا الشرع أن يرجع اليه رشده فيتدارك ما فرط منه حتى اذا طلق الثالثة وجبت عقوبته بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من انه سفيه الرأى ضعيف العزم ولا يخفى ما فى هذا الشرط من السر الحكيم واذا أردت زيادة بيان فتدبر قوله تعالى (وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما) أيقول الله أن يريدا طلاقا يفرق الله بينهما أم ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما

وتفهم قوله تعالى (خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فقال لتسكنوا اليها ولم يقل لتطلقوها وقال وجعل بينكم مودة ورحمة ولم يقل بغضاً وقسوة وقوله تعالي (أمسك عليك زوجك) أمر النبي عليه السلام زيداً بأن يمسك زوجته فلا يطلقها مع انها كما تقدم كانت تكثر من مضارته واساءته وقال تعالى (فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) أى فلا تطلقوهن ومن هنا استنتج ان الاصل فى الطلاق التحريم الا لسبب كما تقدم لنا

خاتمة

١٠

ونريد أن نأتيك هنا بملخص ما كتبه الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده مما يناسب هذا المقام ليكون له أحسن ختام

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر ان لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» «وأن ليس للانسان الا ما سعى» وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ماشاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضاراً لنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ماتعدى ضرره الى غيره . وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها اللهم الا حقاً محترما تصطدم به أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة في المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الامم وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم «نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة»

علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والاعلام اعلام الكون ودلائل

الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فوصفهم بالتمييز بين مايقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا مالم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستو كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاؤون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وماتوارثه عنهم الابناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا لعقول على عقول ولا لاذهان على أذهان وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شئ لن تضيق عن دائب

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم « بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا » (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون)
